من الشرق والغرب

من معاني القرآن

بقلم : عبد الرحيم فودة

الإهداء

أبى .. الشيخ محمود فوده

لا زلت أذكر الساعة التى أخذتنى فيها من الحقل الى « كتاب القرية » لاحفظ القرآن .

ولا زلت أذكر الساعات التى كنت أجلس فيها متربعا أمامك . أقرأ وتسمع .. تردنى الى الصواب حين أخطىء وتحثنى على الاسراع حين أبطىء .

لقد كنت ـ ولا مجال لك الا الحقل والبيت والمسجد ـ أجمل مثال لتعاون البيت مع المدرسة فى الاعداد والتربية والتوجيه .

ولا زلت أذكر اليوم الذى أخذتنى فيه من القرية الى القاهرة العامرة . لادرس العلم للعلم كما كنت تقول .

ولا زلت .. ولا زلت .. و .. الخ

ما أجمل الذكريات التى تتألق صورها فى قلبى . عنك ولك . وبك .

فأرجو أن تتقبل هذه التحية تعبيرا لك عن شكرى لله وشكرى لك بعد الله .

ابنك

عبد الرحيم فوده

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الانبياء والمرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد

فقد كان من حكمة الله وهو جل شأنه « أعلم حيث يجعل رسالته » ـ أن تكون المعجزة التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم للعرب وغير العرب معجزة أدبية وعقلية واصلاحية ، وان يكون دليله على صدق دعوى رسالته هو هذا الكتاب الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » وأن يكون هذا الكتاب الذى بما يتألق فيه من آيات العلم والحكمة والسمو الادبى هو حجته البالغة على أنه مبلغ عن الله ، لا يد له فيما يتلوه منه ، كما يقول الله « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون » .

وقد كان مفاجأة للنبى صلى الله عليه وسلم أن يهبط عليه جبريل وهو يتعبد فى غار حراء ـ ولم يكن قد ألفه أو عرفه من قبل ـ ثم يضمه اليه فى عنف وقوة ويرسله . ويطلب منه أن يقرأ . وهو لم يتعلم القراءة والكتابة ، فيرد صلى الله عليه وسلم بما عهد فيه من صدق وأمانة . ويقول : ما أنا بقارىء ، وظل عليه الصلاة والسلام ـ مع ما كان يعانيه من الضعف والخوف أمام جبريل ـ يرد بقوله : ما أنا بقارىء ، حتى ضمه الملك ضمة ثالثة وأرسله . وقال له (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » ، ثم انقطع الوحى . وارتفع الملك ، وعاد صلى الله عليه وسلم يرجف قلبه ، ويقص على زوجه خديجة رضى الله عنها ما عاناه وقاساه ، وشاهده ورآه ، ثم يقول لها : لقد خشيت على نفسى ، فتجيبه فى لهجة الواثق الواثق : كلا ، والله لا يخزيك الله ابدا ، انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

ويمكن المتأمل فى هذه القصة أن يلمح من خلالها تباشير الصبح الذى فاض على الامة العربية خاصة . وعلى الانسانية عامة . بضياء الاسلام وسناه الفامر الباهر ، فان فى قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » ما يشعر بأن قراءته عليه السلام ستكون بقدرة الله التى صدر عنها خلق الانسان . وكل ما تفضل به عليه الرحمن ، لا عن خبرة فى القراءة . أو قدرة على اكتسابها وتعلمها ،

فليس بعزيز على الله أن يقرئه . وقد خلقه وخلق كل انسان غيره من علق ، ثم جعل منه السمع والبصر والفؤاد ، ونفخ فيه من روحه وسواه فى أحسن تقويم ، بل انه ـ جل شأنه ـ كما يقول : « انما أمرنا لشىء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون » ، ولعل مما يؤيد ذلك . ما كان من النبى صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ، فقد كان يخشى أن ينسى شيئا مما يوحى به اليه . فنزل قوله تعالى : « سنقرئك فلا تنسى » . وكان يحرك لسانه بما يسمعه قبل أن ينقطع الوحى عنه حتى لا يفوته شىء منه فنزل عليه قوله تعالى : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه » .

وهكذا شاء الله أن يقرأ الأمى وأن تكون معجزته كتابا «لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » وأن يكون هذا الكتاب دستور أمة أمية لم تكن تقرأ وتكتب ، وأن يكون هذا الدستور أكمل وأمثل نظام عرفته البشرية ، وأن يكون الى أن يرث الله الأرض ومن عليها معجزة الأنس والجن فى كل دهر وعصر ـ كما يقول الله ويشهد الواقع : « قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

وكان عجبا أن يصنع هذا الكتاب من الأمة العربية : « خير أمة أخرجت للناس » وأن يحولها فى مدى لا يحسب له حساب فى عمر الافراد ـ بله الأمم والشعوب ـ الى الصورة المثالية التى لم يعرف لها التاريخ مثيلا فى كل الأمم والمجتمعات البشرية ، وأن يضع فى يدها مقادة العالم فى كل شىء كان يعرفه العالم ، فلم يمض قرن من الزمان حتى كانت الكعبة ـ وهى فى أرض عربية ـ قبلة الملايين من أبناء الشعوب التى شرح الله صدور أبنائها للاسلام ، وحتى كانت اللغة العربية ـ لانها لغة القرآن ـ هى اللغة السائدة فى كل الشعوب التى دانت بالاسلام ، وكان ذلك وما اليه مما تزخر به الكتب والأسفار من مختلف ألوان العلوم والفنون هو تفسير البشرى الكبرى التى تأنق بها الوحى فى قول الله لنبيه عند أول لقاء له مع جبريل عليه السلام « اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » بل ان حياة العرب قبل الاسلام ، وما صارت اليه فى ظله من مجد وقوة ، وعلم وحكمة ، وزعامه وأمامه . يجمعها على طولها قوله تعالى : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين » . ثم يذكر ما كان عليه العرب قبل الاسلام ، فسيجد أن كلمة يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

وليتأمل القارىء معنى قوله تعالى : « وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين » . ثم يذكر ما كان عليه العرب قبل الاسلام ، فسيجد أن كلمة ضلال مبين تصور حيرة هذه الأمة وضيعتها ، والظلام الذى كانت تعيش فيه ، والجهالة الرعناء التى كانت تضرب بعضها ببعض وتمزقها شيعا تتشاحن وتتطاحن . وتستعر بينها الحروب لأوهى الأسباب ، وبذلك تمكن الفرس والروم من احتلال جوانبها ، واعتلاء مناكبها ، وانتقاصها من أطرافها .

ثم ليتأمل القارىء معنى قوله تعالى : « ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » فسيجد هذه الكلمات تصور ـ على ايجازها ـ ما صارت اليه هذه الأمة من نماء وقوة ، وما ينطوى تحت مفهوم الكتاب والحكمة من ألوان العلم والثقافة والمعرفة .

وقد كان ذلك كله بفضل الله ، وبفضل هذا الكتاب الذى أنزله الله ، كما يفهم من قوله تعالى : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

كان هذا الكتاب ـ كما قلت فى بعض ما كتبت ـ ولا يزال مصدر هداية للناس جميعا ، ولكنه مع هذا هو كتاب القومية العربية منذ كانت للعرب قومية قوية ، فقد كانت لغتهم عدة لغات ولهجات فصارت به لغة واحدة ، وصاروا به أمة واحدة ، وكانت أرضهم محتلة الأطراف ، يخضع بعضها لسلطان الفرس ، وبعضها لسلطان الروم ، وبعضها كان يخضع لنفوذ الحبشة ، فصارت به أرضا مطهرة محررة ، تبسط ظل زعامتها على أولئك وهؤلاء جميعا ، ثم انساح العرب فى ظل لوائه يفتحون البلاد شرقا وغربا ، ويفتحون قلوب أهليها بهداية هذا الكتاب . حتى دانت لهم الشعوب عن طواعيةواختيار ، ولانت السنتها بلغة هذا الكتابالذى أنزله الله بلسان عربى مبين .

ثم امتحن العرب والمسلمون بالمحن الشداد ، والخطوب الثقال . حتى صار أمرهم الى غيرهم ، ثم صاروا هدفا لحملات الغزو التترى والاستعمار الأوروبى . وصاروا قطعا وشيعا ، يتحكم فيهم الدخلاء والاجراء للدخلاء ، فذابت أو كادت تذوب كل مقومات قوميتهم لولا هذا الكتابالذىحفظ لهم لغتهم ، وتناجت به ضمائرهم ومشاعرهم ، وتلاقت عليه مذاهبهم ومواكبهم ، فقد بقى مرفوع اللواء مسموع النداء ، « عربيا غير ذى عوج » ينطق فتخفق من حوله القلوب وتتفتح له الآذان والأذهان وتقوى به الهمم والعزائم .

وبذلك الكتاب ، وبالعلوم العربية التى نبتت على شاطئيه وبالايمان الذى كان ولا يزال يشد العرب والمسلمين اليه ، بقيت اللغة العربية واللغة أهم مقومات كل قومية ـ سليمة قوية لم تنسخ ولم تمسخ على كثير ما داهمها وزاحمها من لغات الطارئين من أجانب ومستعمرين ، وعلى كثرة ما بذله أولئك وهؤلاء من محاولات لنسخها ومسخها ، وقطعالاسباب التى تصل العرب والمسلمين بها ، لتنقطع صلتهم بهذا الكتابالذى جمعهم على الأخاء ، ودفعهم الى المجد ورفعهم الى السماء ومكن لهم فى الأرض .

لقد حطم التتار بغداد ، وأحرقوا نفائسها العلمية ، وأطاحوا بخلافتها الاسلامية . وروعوا علماءها وأدباءها ، فأبتالقاهرة أن تدع العلم بينأقدام الغزاة ، وتلقته بكلتا يديها لتحمله وتحميه ، ثم أقامت من أزهرها معقلا شامخا للقرآن وعلوم القرآن.يفد اليه المروعون من شتى البقاع والاصقاع فيجدون فيه مثابة وأمنا ، وحتى الرمز الذى كانت تعتز به بغداد ، وهو الخلافة ، أبت القاهرة أن يصبح مجرد ذكرى مجد دارس،فأحيته وجعلته شعارها ، وشرعت تكافح به فى ميدانين ، تلتقى فى أحدهما بالتتار ،وفى

الثانى بدول الاستعمار حتى نجحت فى قهرهما ، وحفظت لمصر مكانتها وعروبتها ، ثم بقيت تحافظ على ماورثت من مقدسات الاسلام ، ومقومات العروبة حتى نكبت ونكب الشرق معها بالغزو الفرنسى ، ثم بالاحتلال الانجليزى ، ومع طول ما قاست وعانت خلال تلك الحقب والعصور لم يضعف حرصها على مقدسات دينها وعروبتها ، بل أخذ كفاحها الشعبى يتجه اتجاها آخر ، فوقفت الأموال على الازهر وعلى تعليم القرآن ، وأنشئت المكاتب فى كل مدينة وقرية لتحفيظ القرآن ، وكان هذا بصورة قوية قاهرة فى الوقت الذى كان فيه « دنلوب » الانجليزى يعمل على أن ينتزع من حلوق المصريين السنتهم العربية ، ويضع فيها السنة صناعية انجليزية .

وانجلى ليل المحتلين ، وبقيت مصر عربية اسلامية تتأهب للنهوض بدورها التاريخى الذى عرفت به فى خدمة العروبة والاسلام وبقى التراث العربى والاسلامى سليما ينتظر أن تمتد اليه الأيدى الطاهرة لتعيد اليه رواءه وبهاءه ، وتنفض عنه ما علق به من غبار وأوضار ، فان هذا التراث الفكرى يحتل من القومية العربية مكان العمود الفقرى ، لأنه يمثل خصائصها وسماتها وملامحها ، بل هو روحها التى تدفعها الى تحقيق أهدافها ورسالتها .

ولا شك أن هذا التراث كان يدور كله أوجله حول القرآن وعلومه لأن العلوم العربية كان الباعث على تدوينها وتقنينها هو المحافظة على صلة العرب والمسلمين بهذا الكتاب ، وقد نبعت علوم الفقه وأصوله والتوحيد والحديث والتفسير من هذا الكتاب ، وتفرعت عن النظر فيه واستجلاء حقائقه ومعانيه ، وبذلك كسب العرب بين عامة المسلمين مكانة الامامة والزعامة .

ومعنى ذلك بعبارة موجزة قصيرة ما يلى :

١ ــ ان اللغة العربية ــ وهى أهم مقومات القومية ــ مدينة ببقائها وسلامتها للقرآن .

٢ ــ ان ثروتنا التشريعية وعلومنا العربية تنبع من القرآن .

٣ ــ ان جميع الشعوب الاسلامية تلتقى معنا على الايمان بالقرآن وضرورة المحافظة عليه وعلى علومه .

٤ ــ ان عروبة القرآن من حيث لغته لامن حيث موضوعه وتشريعه فانه عام لكل الخلق والأنام ــ تضع الأمة العربية فى مكانة الزعامة بين عامة المسلمين ، ولعل ذلك بعض ما يفهم من قول الله سبحانه « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

٥ ــ ان القرآن هو الكتاب الوحيد الذى يثمر فى اذكاء روح النهضة العربية ، لايمان العرب مسلمين وغير مسلمين بأنه كان ولا يزال أقوى مؤثر فى هذه الأمة ، أو فى كثرتها الغالبة .

وقد كان من توفيق الله أن هيأ لى فرصة العمل فى الصحافة زمنا ليس بالقليل • وكانت أمنيتى أن تفسح الصحف صدرها لكلمة تكتب فى بعض معانى القرآن مع ما يكتب فيها من مختلف الأبواب • فتحققت هذه الأمنية أخيرا فى « جريدة الشعب » بصورة لم تكن تخطر على بال •

فقد عهد الى أن أكتب تحت عنوان «من معانى القرآن» وكان الغرض ذكر بعض آيات مع شرحها بقليل من الكلمات • لتكون مع غيرها من الأبواب القصيرة التى تنشر فى نهر واحد باقة متنوعة ، ولكنى ما كدت أنتهى من تفسير سورة الفاتحة لأبدأ فى تفسير غيرها من السور القصيرة حتى كان بين يدى كثير من الرسائل يطالبنى فيها القراء بمتابعة الكتابة فى تفسير القرآن على هذا النحو • وعلى الترتيب الذى دون به كتاب الله فمضيت أقرأ وأوازن ، وأختار ، وأكتب • وأتوخى فيما اكتب ان يكون الكلام بحيث يفهمه القراء ، ويقبله الخاصة والعامة على السواء ، فكان من توفيق الله أن وجدت ترحيبا حبيبا ، واتصل العمل عاما ونصف عام حتى كان هذا الكتاب وما سيليه باذن الله •

ثم كان من توفيق الله أن يسر جمعه وطبعه • فتحققت بذلك رغبات الذين كتبوا ــ وما كان أكثرهم ــ وطلبوا الى نشر ما كتبت تحت هذا العنوان فى كتاب جامع •

أما الجهد الذى كنت أبذله • والعناء الذى كنت أتحمله • فى سبيل اعداد هذه الكلمات • فقد كان يهون أمام رضاء القراء • وأمام الأمل فى رضاء الله •

وأحمد الله على أن وفقنى الى هذا النهج الجديد فى تفسير كتابه •• وأسأله أن يسدد خطانا • وأن يوفق أولى الأمر فينا ــ وعلى رأسهم السيد الرئيس جمال عبد الناصر ــ الى خير العرب والمسلمين حتى يعودوا كما كانوا « خير أمة أخرجت للناس ــ وكما يقول الله « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » •

عبد الرحيم فوده

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين (٢) الرحمن الرحيـــم (٣)
مالك يوم الدين (٤) اياك نعبـــد واياك نستعين (٥)
اهدنا الصراط المستقيم (٦) صراط الذين أنعمت عليهم
غير المغضوب عليه ولا الضالين (٧) ٠

(فاتحة الكتاب)

بســـم الله ...

من الآداب العامة التى اتبعها المســـلمون ـ ولا يزالون ـ عند الشروع فى أى أمر هام . أو عمل له شأن وشرف . الابتداء بهذه العبارة القصيرة : بسم الله الرحمن الرحيم .

ومعناها اجمالا ـ أستعين بالله فيما أنا مقدم عليه ، وألتمس منه اليمن والبركة والخير فيما أنا شارع فيه .

والسبب فى حرص المسلمين على هذا التقليد الحميد . هو الاقتداء بالقرآن ، ودعوة النبى اليه ، فان كل سورة فى القرآن غير سورة التوبة بدئت بالبسملة ، وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وســـلم أنه قال : « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر » أى ناقص وقليل البركة ..

ولا شك أن تذكر الله ، واستحضار آثار رحمته فى الذهن عنـــد البدء فى أى أمر هام . أو مشروع عام ، ممـــا يبعث فى النفس الثقة والأمل ويقوى فى الانسان الرغبة فى العمل ، ويعينه على اتقانه واحسانه وحقيق باسم الله أن يقرن بكل عمل صالح ، لأنه ـ سبحانه ـ له الخلق والأمر ، ولا حول ولا قوة الا به .

الرحمـــــة

الرحمن الرحيـــم ...

هاتان الكلمتان تدوران على كل لسان عربى ، وآثار مدلولهما فى الكون والحياة تملأ كل زمان ومكان ، وهما مع ذلك فى حاجة الى تفسير وتذكير وتبصير .

فالرحمة التى أخذت منها هاتان الكلمتان ليست هى الرحمة التى نحسها فى أنفسنا نحو غيرنا من الضعفاء أو الفقراء أو البائسين .

ان احساسنا بالرثاء والاشفاق والميل نحو هؤلاء . ينبع من قلوب تلطف أو تضعف ، فتميل الى هؤلاء كما تميل الارحام وتنعطف على مافيها من أجنة ، وهذا هو مأخذ كلمة الرحمـــة . وهى رقة فى القلب تقتضى التفضل والاحسان .

ولما كانت ذات الله وصفاته لا تشـــبه ذواتنا وصفاتنا ، لانه ـ سبحانه ـ ليس كمثله شيء ، كان من الخطأ تعريف رحمته بما تعرف به رحمتنا ، ولهذا تعرف رحمته بآثارها فى أنفسنـا وفيما حولنا من نعـم لا تحصى ولا تستقصى ، فالرحمن ـ كما قـالوا ـ هو المنعم بجلائل النعم ، والرحيم هو المنعم بدقائقها ، وجلائل النعم هى النعم العامة التى ينتفع بها الناس جميعا ، أما دقائقها فمنها ما يختص به من يشـــاء من عباده ومنها النعم الخفية التى لا تنالها المدارك ، ومن ثم كانت كلمـــة الرحمن مقصورة على الله فلا تستعمل فى غيره ، أما كلمة الرحيم فيوصـــــف بها الله وغيره ، ومن ذلك قوله تعالى فى نبيه عليه السلام « لقـــد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم»

ولتيسير تفسير ذلك ، على الانسان أن يفتح نوافذ حواسه وعقله ، ويفكر فى الكون وما فيه ، فسيجد نعما كبرى لايد للانسان فيها ، ولا يمكن صدورها عنه ، كايجاد فصائل الخلق ، وتوفير وسائل الرزق ، فى الأرض التى تقلنا ، وفى السماء التى تظلنا ، وفيما بينهما من ماء وهواء ، وشمس تبعث الضوء والدفء ، وتثير البخار ليخلص لنا من الماء الملح فى البحار ماء عذب سائغ شرابه • يقوم عليه الانسان والنبات والحيوان •

هذه النعم الكبرى وما اليها مما لا يستطيعه الانسان يدل عليهـــا وعلى المتفضل بها بكلمة الرحمن •

أما غيرها من النعم الأخرى التى يختص بها الله من يشاء من عباده فيدل عليها وعلى المتفضل بها بكلمة الرحيم ، فينبغى ملاحظة هذا الفارق والتمييز بين صفات المخلوقين وصفات الخالق ، فانه ـ جل شأنه ـ متصف بكل كمال • منزه عن كل نقص ، الرحمة منه تفضل ولطف ، فلا يشوبها ما يشوب شعورنا بالرحمة من الاشفاق والعطف أو الاحساس بالضعف أو الخوف •

(الحمـــد لله)

اذا كان فى انسان صـــفة حسنة كالشجاعة • فتأثرت بها نفســه وانطلق لسانك بالثناء عليه من أجلها ، قيل انك حمدته ، أى ذكرته بصفة جميلة فيه • وهى الشجاعة مثلا •

واذا أحسن اليك انسان فقابلت احسانه اليك بكلام جميـل فيه وثناء عظيم عليه ، قيل كذلك انك حمدته • أى ذكرته بعمـــل جميل • وهو الاحسان •

فالحمد هو الثناء باللسان ، وهو يقع على الصفة الجميلة والعمـل الجميل •

أما الشكر فيكون باللســـان والقلب • والجوارح • وهو يقع على العمل الجميل لا غير ، فتقول شكرت الله • أى اعترفت بنعمته ، وفعلت ما يجب على من طاعته

فاذا لوحظ مع هذا أن قدرتنا مستمدة من الله ، وأن نجاح أعمالنا بتوفيق منه ، ظهر معنى قولنا « الحمد لله » فهو الجدير بأن تنسب اليه كل المفاخر ، وهو ـ وحده ـ المستحق لكل حمد ، فان كل ما تقع عليه الأعين ، وتدركه الحواس ، من ألوان الجمال وجلائل الأعمال مردها اليه ، لأنه الخالق المربى ، والمالك المتصرف فى كل ما عداه .

(الـــرب)

بدأت المعركة فى غزوة حنين ، بهزيمة المسلمين وانتهت بنصرهم على أعدائهم .

وكان فيهم بعض المنافقين من كفار قريش ، فلم يملك أحدهم نفسه حين رأى بوادر الهزيمة أن صاح شامتا : ألا بطل السحر اليوم .

وغاظ أخاه ـ وكان كافرا مثله ـ أن تهزم قريش وتذل لأجنبى عنها . فنهره وزجره، وصاح فيه : « أسكت فض الله فاك ، والله لأن يربنى رجل من قريش خير من أن يربنى رجل من هوازن » .

ومعنى « يربنى » بضم الراء ، وتشديد الباء يسودنى ويسوصنى .

فقد كان السيد المطاع فيهم يدعى عندهم ربا .

وكان المالك للشىء المتصرف فيه يدعى بالنسبة له ربا .

وكان القائم على اصلاح الشىء وتربيته وتنميته يدعى كذلك بالنسبة له ربا .

فاذكر ذلك كله . واملأ به شعورك وضميرك . وقلبك وعقلك حين تقول : الله ربى . وهو . رب العالمين .

(العـــالم)

العالم « بفتح اللام » اسم لما سوى الله من أجناس ذوى الفهم والعلم .

فالناس عالم يفهم ويعلم .

والملائكة عالم يفهم ويعلم .

والجن عالم يفهم ويعلم .

ورب العالمين . هو رب هؤلاء .

لكن الله ليس رب هؤلاء فحسب . فانه ربهم ورب كل شىء رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق .

هو السيد المطاع فى الكون كله ..

أوجد كل شىء على وفق تقديره وتدبيره وعلمه ..

ما من ذرة فى بر ، ولا قطرة فى بحر ، الا وهى مدينة بوجودها له ، مشدودة بكيانها اليه .

لهذا قيل ان العالم اسم لما سوى الله من الناس ومن جميع الأجناس .

ولوحظ فى هذه التسمية أن العلم به وبما ينطوى عليه من أسرار وقوانين يهدى الى الايمان بصانعه ومبدعه .

وكأنما وضع له هذا الاسم ليكون اغراء بالعلم ، واستهواء الى المعرفة وكأنما تشير الى ذلك الآية الكريمة : « انما يخشى الله من عباده العلماء .

(يوم الدين)

قد يخطر على بالك وأنت مستغرق فى مناجاة الله بالصلاة ، تمجده ، وتحمده ، وتعبده ، وتذكر أنه « مالك يوم الدين » ان معنى الدين هو العقائد والقواعد والأحكام التى وضعها الله للناس وشرعها ليدينوا بها ، ولتقودهم باختيارهم المحمود الى ما ينفعهم فى دنياهم وأخراهم .

ان لكلمة الدين فى اللغة معانى أخرى غير هذا ، ولكن أوفقها وأليقها بهذا المقام هو « الحساب والجزاء » فالله وحده هو الذى يملك كل أمر فى هذا اليوم . « يوم يقوم الناس لرب العالمين » .

والملكية النسبية التى نعرفها فى هذه الحياة ستدول وتزول .. « يوم لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا » .

هذا اليوم آت لا ريب فيه ، لأن العدل الالهى يقتضيه فلا يفلت المسىء من العقاب ، ولا يحرم المحسن الثواب ، ولا يكون مصير المؤمن المصلح كمصير الكافر المفسد : « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون » .

وقد وعد الله به على السنة جميع رسله وهو سبحانه لا يخلف الميعاد .

(اياك نعبد)

نهاية الخضوع مع الخشوع والخوف من العقاب والطمع فى الثواب هو ما يسمى عبادة ، وهى لا تكون الا لله .

أما مبدأ الخضوع للنظام ، وطاعة الحاكم فيما يعود على الفرد وعلى الجماعة بالخير المشترك والمصالح العامة ، فلا يسمى عبادة .

ان الحاكم فى حقيقة أمره محكوم بجهازه الجماعى والاجتماعى محكوم بجهازه العقلى ، والعصبى ، والهضمى • وهذه الأجهزة التى تحكمه محكومة بقوة عليا تدبرها وتسيرها كما تدبر وتسير كل الكائنات •

فالخضوع له ليس عبادة لذاته • وانما هو احترام للنظام العام •

والنظام العام اذا كان يقوم على توخى الحق والخير • ورعاية الأمن والسلام للفرد والجماعة كان احترامه تنفيذا لأمر الخالق قبل أمر المخلوق •

أعرفت بعد ذلك معنى اياك نعبد •• ؟

ان معناها • نخصك بالعبادة • فلا نخاف غيرك • ولا نرجو سواك •

(واياك نستعين)

الاستعانة طلب العون والمساعدة ••

ولا يكون ذلك الا عند العجز عن العمل • أو عن اتمامه والاستقلال به ، أما عند القدرة عليه • وامكان الاستقلال به فطلب المعونة لا يقع من ذوى العقول موقع الرضا والقبول •

حقا ان الله قادر على كل شىء • وأن رحمته وسعت كل شىء ، وانه لا قدرة لنا على عمل الا بعونه وتوفيقه •

ولكنه خلقنا ، وزودنا بقوى يجب ألا نهملها أو نعطلها ، بل يجب علينا أن ننتفع بها ، وأن نلتمس النتائج من أسبابها ، فاذا انتابنا بعد ذلك ضعف أو عجز كان الامل فى نجدة الله والتماس عونه هو الاتجاه الطبيعى الصاعد للايمان برحمته التى لا تضيق ، وقدرته التى لا تعجز •

أما الاتجاه الى غيره فهو ــ فى الحقيقة ــ انحدار ينهار بالانسان الى هوة الذل والهوان •

فاذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله •

(الهداية)

اذا وجهك انسان بعنف الى معرفة طريق الحق ، وادراك وجه الخير فيما يطلب اليك من عمل • فلا يسمى ذلك التوجيه والعلم هداية •

ان الهداية هى الدلالة بلطف على ما فيه الخير والنفع وهى اذ تكون كذلك يكون أثرها اتباعا نفسيا هادفا ، ونشاطا عقليا راشدا • ونتاجا عمليا مفيدا •

انها تيار لطيف يسرى فى مصابيح القوى العقليـــة والنفسية ٠ والحواس البـــاطنة والظاهرة ، فتضىء وتتألق ، وتملأ الصدور انشراحا بنور العلم ، والنفوس اقبالا على العمل ، والروح ارتياحا الى ما عند الله ٠

قد يخطىء الوجدان وهو أول مراتب الهداية ٠ وقد تخطىء الحـواس وهى المرتبة الثانية ، وقد يخطىء العقل فلايصحح خطأ الحواس اذا انحرفت الى الخطأ ، ولكن هداية الدين لا تخطىء ٠ لأنها من الحكيم العليم ٠

ومن ثم كان علينا أن نلتمس الهداية من الله ٠ ومن كتبه المنزلة ومن رسله الذين بعثهم الى الخلق بالخير والحق ٠ وعصمهم من الشر والضلال ومن آيات الله التى يشير اليها بقـــوله : « سنريهـــم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ٠ أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » ٠

(الصراط المستقيم)

اذا كانت الهداية هى الدلالة بلطف على ما فيه خير ونفع فان الطريق السليم الى ذلك الخير والنفع هو الصراط المستقيم ٠

اننا نعيش فى هذه الحياة بين حاجات تدفعنا ، وآمال تنفعنا أو تخدعنا ، وبين هذه الحاجات التى نحسها والآمال التى نرجو تحقيقها لاشباع هذه الحاجات طرق تختلف قربا وبعدا ، ويسرا وعسرا واستواء والتواء ، وأمنا وخوفا ٠ ونجاحا واخفاقا ٠

وهذه الطرق والآمال قد تتعارض وتتناقض ٠ لأننا فى ســـباق لازم ، وصراع دائم ، وتنازع على المصلحـة والبقاء ٠ تديره الغـــرائز الجامحة ٠ وتثيره الشهوات الطامحة ٠

ومن ثم ينبهم أمامنا الطريق المستقيم السليم ، ونحس فى أنفسنا الحاجة الى هداية من الله توجهنا اليه ، وتسدد خطانا عليه ، فنأمن السير فيه ، ونضمن الخير منه ٠

وهذا ما نعنيه أو بعض ما يجب ان نعنيه بدعائنا الذى نتجه به الى الله فى كل صلاة ٠ قائلين « اهدنا الصراط المستقيم » ٠

(الى أين ٠٠٠ ؟)

طريق الحق والخير ـ كما ذكرنا ـ هو الصراط المستقيم ٠

والناس فى اقبالهم عليه واعراضهم عنه ثلاثة أقسام ٠

منهم من عرف الحـق فالتزمه ، والخير فاتجه اليه ، وهـذا مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ٠

ومنهم من عرف الحق والخير ، ولكنه اتخذ الهه هـــواه · فجمح به الى الباطل ، وسار به مع شهواته فى طريق الشيطان ، وهذا مع الذين غضب الله عليهم وتوعدهم بالعذاب وسوء المصير ·

ومنهم من أعماه الجهل فضل طريق الحق والخير ، وعاش كالأنعـــام مع ما زوده به الله من أسباب العلم والادراك · وهذا من الذين قال الله فيهم « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » ·

هذه الاقسام الثلاثة يمكن أن تفهم من هذه الكلمات« صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم · ولا الضالين » ·

(ثمرة المعرفة)

الوظيفة قبل العضو ·

الفكرة قبـل التنفيـــذ ·

التقدير قبل التكوين ·

هذا هو الأساس الذى قام عليه خلق الكون والناس ، وهو قوام كل نظام ·

فاذا استقام فى ذهنك هذا الاصل فثمرة معرفة الحق أن تقدســـه وتثنى عليه بما يستحق ، وثمرة معرفة الخير أن تحرص عليه · وتسلك أقوم الطرق اليه ·

اقرأ الفاتحة التى تقرؤها فى كل صلاة ، وتأمل معانيها فى تريث وأناة ، تجد هذا النظام فى غاية الاحكام والانسجام ·

فالله هو الملك الحق ، وهو رب كل الخلق ، يعيشون فى رحاب كرمه ، ويتقلبون فى ظلال نعمه ، وثمرة معرفة هذه الحقيقة أن نحمده ونعبده ، ونستعينه ، وحده لا شريك له ·

والخير هو الغاية التى تستحق الاهتمام والعناية ، وثمرة معرفة هذه الحقيقة أن نتوخاه فى أقوالنا وأعمالنا ، وأن نسأل من بيده الخير أن يوفقنا اليه ، ويهدينا الى طريقه القويم ، وهو الصراط المستقيم ·

هذه المعانى التى ذكرت مجملة فى سورة الفاتحة · تراها مفصلة فى القرآن · ومن ثم سميت الفاتحة أم الكتاب ·

(البذرة والشجرة)

ولتقريب هذا المعنى أضرب لك المثل بالبذرة والشجرة ٠

فالشجرة تورق ، وتزهر ، وتثمر ، وتمتد أغصانها فى كل اتجاه فتروق الناظر ، وتشوق الخاطر ، وتلطف الجو ، وتعطر الهواء بما تحمل من زهر وثمر ، وخضرة وظلال، ولكن سرها الذى باح وعطرهاالذى فاح ، وحسنها الذى لاح ٠ فى الحبة التى انشقت عنها والبذرة التى انبثقت منها ، فما تراه فى الجذوع والفروع ، والاوراق والازهار والثمار تجده فى العناصر التى تكونت منها البذرة قبل أن تصير شجرة سامقة باسقة ترف بالخضرة والظلال ٠ والنضرة والجمال ٠

ان الفاتحة من القرآن بمنزلة البذرة من الشجرة ٠

انها الأصل والقرآن فصول وفنون تبوح بأسرار هذا الاصل ومن ثم كان واجبا علينا أن نحفظها وأن نقرأها فى كل ركعة من كل صلاة ٠

(سورة البقرة)

بسم الله الرحمن الرحيم

ألم (١) ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين (٢) الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (٣) والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون (٤) أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون (٥) .

ألم · ذلك الكتاب ·

بدئت السورة الثانية على هذا الوضع · فكيف تنطق الكلمة الأولى · وما معناها ·· ؟

اقرأها هكذا · ألف لام ميم · بتسكين آخر كل كلمة ·

أما معناها ومغزاها فسر طافت حوله الاحلام ، واختلفت فى فهمه الأفهام ·

ومن أقرب ما قيل فى هذا السبيل · أن هذه الحروف البسيطة التى تعرفونها وتستطيعون كتابتها وقراءتها ، يتألف منها ذلك الكتاب الذى لا يدانيه كتاب ، وذلك الكلام الذى لا يرقى اليه كلام ·

ماء · ملح · حديد · جير ·· الخ ، جسم الانسان يتكون من هذه العناصر ، وهى كثيرة ميسرة لكل طالب ، ومع هذا لا يستطيع أحد أن يصنع منها جسما حيا ينبض بالحرارة ، ويتحرك بالارادة ، ويسود بالعقل ويسعد بالرضا والاطمئنان ·

هذا الكتاب المعجز من الله ، فان حامله لا يعرف الكتابة ولا يعرف هذه الحروف التى تتألف منها الكتابة · ولا يستطيع هو أو غيره أن يؤلف كتابا مثله ·

(البسيط قبل المركب)

ما من كائن حى الا وهو مركب من عناصر مجردة كانت قبل أن يكون ، ثم جمعها خالقها ، وكون منها جهازه الحى ، وجعلها مؤثرة فيه متأثرة به ، وخلق لها وظيفة تؤديها فيه بالتضامن مع غيرها من سائر العناصر ·

خذ مثلا لذلك الدواء النافع ، فانه مركب من مواد لا يظهر أثرها الا باندماج بعضها فى بعض ، وامتزاج بعضها ببعض ·

وهذه المخترعات التى نراها · والأجهزة التى نستمع اليها ألم تكن مسبوقة بوجود العناصر التى تألفت منها ··· ؟

لماذا تدهش اذن حين ترى سورا من القرآن مبدوءة بكلمات لا نفهم منها الا الحروف المفردة المجردة مثل · ألف · لام · ميم « التى ترسم هكذا « ألم » وطا · سين · التى ترسم هكذا « طس » وحا · ميم · التى ترسم هكذا « حم » ·

ان هذا الكتاب الناطق بآيات الله ، البالغ غاية الاحكام والاتقـــان يتألف من عناصر مجردة هى هذه الحروف التى لا تستقل بافهام معنى ولا تنهض بأداء غرض ...

(المعجزة الخالدة)

ذلك الكتـــاب .

يوجهنا الله بالاشارة اللافتة الى أن هـــذا القـــرآن هو الخليق بأن يسمى كتابا .

فانك تقول « ذلك الرجل » وتعنى أنه الذى استكمل كل ما يتمتع به الرجال من خصائص الأخلاق . وفضائل الخصال .

وهذا القرآن هو الكتاب الذى استوعب كل ما فى الكتب من حقائق عليا . وزاد عليها بما يلتئم مع حاجة البشرية كلما ارتقت درجة نحـــو الرشد والكمال » .

انه الكتاب الذى تكفل الله بحفظه من يد الزمان والانسان . فبقى مصونا محفوظا فى الصدور والسطور . بلغته التى أنزل بهـــا ونظامه الذى قام عليه .

انه كتاب اللغة والعلم . يفهم بالعلم ، ويخدم بالعلم ، لأن الذى أنزله يعلم كل سر ، وهو سبحانه لا يتعارض قوله مع علمه ولا يختلف كلامه عن فعله .

انه الكتاب الذى أعجز العرب . وأنهض العرب .. وأعجز بالعرب غير العرب وبقى بعد ضعف العرب يتحدى الجن والانس أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله . فلم يأتوا ، ولن يأتوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ..

انه دون غيره الجدير باسم « الكتاب » .

(لا ريب فيـــه)

الشك والحيرة يفضيان الى القلق وعدم الاطمئنان .

وهذا الكتاب حق كله ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومن ثم كان مبعث الايمان والسكينة والطمأنينة .

فليس فيه ما يثير أى ارتياب أو اضطراب .

ان الريب هو القلق الذى يضطرب به القلب والعقـــل بين عذاب الشك وضباب الجهل ، وليس فى القرآن الكريم الا ما يشرح الصدر بنور الايمان ، ويفسح أمام العقل مجال التفكير السليم .

صحيح أن بعض المصابين بمرض الجهـــل أو النفاق قـــد أظهروا ارتيابهم فيه ، وأنكروا شمس آياته ، ولكن ارتيابهم كان منشؤه المرض والغرض والتقليد البليد ، ومن ثم لا يعبأ بهم ولا بارتيابهم ، فلا يقام لهم وزن ، ولا يحسب لريبهم وجود ٠

أما هذا الكتاب فهو الحق والحكمة وفصل الخطاب ٠

(دعاء واستجابة)

« هدى للمتقين » ٠

أتذكر ذلك الدعاء الذى خفقت به القلوب ، وانطلقت به الالسنة ، واتجهنا به الى الله كى يهدينا « الصراط المستقيم » ٠

لقد كان نهاية السورة الأولى ، فتأمل بداية السورة الثانية لتدرك مدى ما بينهما من تقارب وتجاوب ، ألم ٠ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ٠

ان هذا كالجواب من الله لذلك الدعاء من الناس ٠

لقد سمع من حمده ، وعبده ، واستعان به ، وطلب الهداية منه ، فكان هذا الكتاب جماع كل ما فى الكتب والوجود من حق وخير ، وكان من الاحكام بحيث لا يرقى اليه ريب وشـــك ، ثم هو مع ذلك الهدى لمن يلتمسون الهدى ، من فهمه وجد فيه شفاء صدره ، وضياء فكره ، ودليله الى الخير ٠ وسبيله الى الفلاح ٠

ثم أتذكر الاصناف الثلاثة من الناس ٠٠ الذين أنعم الله عليهـــم والذين غضب عليهم ، والذين ضلوا عن سواء السبيل » ٠

انك سترى وصفا أحوالهم وأقوالهم وأعمالهم ٠

سترى المؤمنين الذين رضى الله عنهم وأنعم عليهم ، والكافرين الذين غضب عليهم ، والمنافقين الذين اشتروا الضلالة بالهدى فلم يربحوا فى تجارتهم ٠ ولم يفلحوا فى دنياهم وأخراهم ٠

(التقوى والمتقون)

أنا وأنت وكل انسان نخاف البرد ٠ ونجتهد فى أن نجد وقاء يصوننا منه ، ويحفظنا من علله ونوازله ٠

ان الوقاية هى المبالغة فى المحافظة والصيانة ، وأول دافع اليها هو الخوف مما قد يتعرض له الانسان من ضر وشر ٠

والله قوى ، قادر ، قاهر ٠ وبيده وحده ما يصيبنا من خير أو شر

ونفع أو ضر ، وهو ـ سبحانه ـ لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ٠

فاذا امتلأت نفوسنا بهذه المعانى كان الخوف من غضبه ونقمته ، والأمل فى رضاه ورحمته ، داعيتنا الى عمل ما يرضيه ، وترك ما يغضبه وذلك هو معنى التقوى ، فكل عمل يراد به اتقاء الشر وابتغاء الخير يصدق عليه اسم التقوى متى كان أساسه الايمان بالله ، والخوف من عذابه ٠ والطمع فى ثوابه ٠

والمتقون من الناس هم الذين يصدرون فى أعمالهم وأقوالهم عن هذا الاحساس ٠ وعلى هذا الاساس ٠

والقرآن أمام هؤلاء نبراس ودليل ، يضيء لهم طريق الخير ويهديهم سواء السبيل ، وذلك بعض ما يفهم من قوله تعالى « هدى للمتقين » ٠

(الايمان ٠ والمؤمنون)

الأمن سكون القلب واطمئنانه ٠

والايمان بالله من هذا القبيل ، اذ هو التصديق به عن دليل ، والاطمئنان اليه عن شعور صادق وادراك سليم ٠

واذا كان مكان الايمان فى الاعماق من قرارة العقل والقلب فان مظهره فى الاقرار به ٠ والاعلان عنه ٠ وثمرته فى تطبيقه والعمل بمقتضاه ٠

بل ان فريقا كبيرا من العلماء يرى أن مجرد التصديق بالقلب والاقرار باللسان لا يسمى ايمانا ، وانما يكون الايمان بثلاثة أركان اعتقاد الحق ٠ والاعراب عنه ، ومطابقة العمل له ٠

على أى حال ٠ سواء أكان العمل ثمرة الايمان أم ركنا منه فالجميع متفقون على وجوبه ٠ والا استوى وجوده وعدمه فى المآل والمصير ٠٠٠

الايمان عقيدة ترسخ فى النفس ٠ يصحبها اطمئنان اليها ٠ وحرص عليها ٠ واقرار بها ٠ وعمل بمقتضاها ٠

والمؤمنون هم أصحاب العقائد القوية الذين يثقون منها ويرتاحون اليها ، ويعربون عنها ، ويحرصون على تحقيقها فى العمل ، وتطبيقها فى السلوك ، ثم لا تزيدهم المحن والفتن الا تمسكا بها واصرارا عليها ٠

(عناوين)

عرفنا التقوى والأساس الذى تقوم عليه ٠ وهو الخوف من الله والطمع فى رحمته ورضاه ٠

وعرفنا الايمان والاساس الذى يقوم عليه ، وهو الايقان بوجود الله ، والحرص على طاعته وامتثال أمره ٠

ولا شك أن الخوف من الله والطمع فى عدله وفضله نتيجة لازمة للايمان به ، ومن ثم كان أول ما وصف الله به المتقين هو الايمان بالغيب، ثم اقامة الصلاة ، والانفاق من رزق الله ؛ والايمان بالقرآن ٠ وسائر الكتب التى أنزلها الله ٠

هذه الصفات هى سمات المتقين الصادقين وهى العناوين التى تندرج فيها كل أنواع العبادات ٠

فالايمان عنوان العبادات القلبية ، والصلاة عنوان العبادات البدنية والزكاة عنوان العبادات المالية ، ولعل المفسرين فاتهم أن يقولوا ان الايمان بما أنزل على محمد وبكل الكتب التى أنزلت على الانبياء قبله هو عنوان اتحاد الديانات السماوية السليمة فى الأساس الذى قامت عليه والغرض الذى تدعو اليه « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

(الايمان بالغيب)

لا شك أن الايمان الحق هو الذى يعتمد على العقل ويستند الى الدليل ٠٠٠

لقد تخيلت رجلا قد عرته الدهشة ، وساورته الحيرة ، وارتسمت على مخايله شارة استفهام ، ثم أخذ يسأل : كيف يكون الايمان بما يغيب عن عين الانسان ، ولا يخضع لتجاربه ٠ كالملائكة والجن ٠ والجنة والنار معتمدا على عقل ، مستندا الى دليل .. ؟؟

بل تخيلت آخر بلغ به الاستهتار حد الانكار ، فقال فى سخرية فاجرة كيف أومن بالله وأنا لا أراه ٠٠؟

أما الاول فأمره سهل ، وجوابه فى عقله وقلبه ٠

فما دام يؤمن بأن الله موجود ، وأن كل جمال وكمال كامل فيه فانه يدرك أن الكذب منه ـ سبحانه ـ نقص لا يليق به ، بل يستحيل عليه ، لانه مظهر للضعف أو الخوف أو الجهل أو الرياء ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، فكل ما أخبر به من أمور غائبة عنا يجب الايمان به اعتمادا على هذا الاصل العقلى ٠ واستنادا الى الدليل النقلى ٠

وأما الثانى وأمثاله ، فلنا أن نسأله ونسألهم قبل أن نجيبهم على هذا السؤال : كيف أومن بالله وأنا لا أراه ؟

أما سؤالنا فهو هل تؤمنون بأن لكم عقولا تفكر وتقدر وتنظم لكم شئون حياتكم .. ؟ وهل ايمانكم بها نتيجة رؤية ومشاهدة واحساس ؟

ما الكهربا التى تمتلىء بآثارها أعينكم ؟ هل رأيتم بأبصـــاركم سالبها وموجبها ...؟

ان الايمان بالله لا يتوقف على رؤيته بالعين . وادراك ذاته بالحواس، وانما تدل عليه آثاره التى تمتلىء بها أعيننا ، وآياته التى تستمتع بها عقولنا ، وبدائعه فى كل مخلوقاته ومصـــنوعاته ـ على أنه حق ، وأنه حكيم ، وأنه القادر المدبر لشئون خلقه .

ولو كان يرى بالعين لكان جسما ، والجسم يحتاج الى حيز ومكان . والله غنى لا يحتاج ..

ولو كان له مكان لكان وجوده متأخرا عن وجـــود المكان ، وهو سبحانه الأول الذى لم يسبق وجوده بوجود غيره .

ولو كان وجود المكان قبل وجود الله لكان لهذا المكان خالق وموجد غير الله . فسبحانه أن يكون جسما يرى بالعين . وتدرك ذاته بالحواس « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » .

(حاضر لا يغيب)

هل الايمان بالله من قبيل الايمان بالغيب ...؟

يرى بعض المفسرين ذلك ، وأرى غير ذلك ..؟

صحيح أن أعيننا لا تقع عليه ، وأنه ـ سبحانه ـ ليس له شبيه فى ذاته أو صفاته ، بل هو مخالف لكل مخلوقاته ، ولـكن آياته تنطق به ، وتتحدث عنه ، وتملأ أعيننا ببدائع جماله . وروائع أعماله ، بل ان قلوبنا وأوعيتنا الدموية ، وأجهزتنا الهضمية والعصبية والعقلية تدار بنظام حكيم ، لا ارادة لنا فيه ، ولا قدرة لنا عليه ؛ وانما تخضع لارادة فوق ارادتنا ، وقدرة فوق قدرتنا تمسك السموات والارض أن تزولا ؛ تسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى .. « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يســـبحون » « تخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى » .

هذه الدلائل الصادقة ، والآثار الناطقة ، تشعرنا بوجوده أكثر من شعورنا بوجود أنفسنا ، فكيف يكون الايمان به من الايمان بالغيب ؟

انه ايمان بحاضر لا يغيب ، ظاهر لا يخفى ، قادر لا يعجز : باق لا يزول ..

(آيات .. وآيات)

قلنا ان آيات الله تشعرنا بوجوده أكثر من شعورنا بوجود أنفسنا فالايمان به ليس من الايمان بالغيب .

وأحب أن أوجه النظر الى ظاهرة هامة تزيد الناظر ايمانا بالله حين يقارن بين مصنوعاته ، ومصنوعات مخلوقاته .

ذلك أن كل شيء صنعه الله بيده يزيدك العلم به احساسا بالعجز عنه ، وشعورا بالقصور عن محاكاته ومضاهاته ، أما ما يصنعه الانسان فالعلم به يمكنك منه ، ويفتح لك الطريق الى الزيادة عليه ومحاولة سبقه فيه كما يقول المرحوم فضيلة الدكتور محمد عبدالله دراز . ولتوضيح ذلك بالامثلة : قارن بين الزهرة الطبيعية التى يتألق رواؤها ، ويتضوع شذاها ، وبين الزهرة الصناعية حيث لا ماء ولا رواء ولا رائحة .

بين الانسان الحساس الناطق المتحرك وبين التمثال الميت الجامد.

بين القمر الطبيعى والقمر الصناعى .

بين أى شيء صنعه الله ، وأى شيء صنعه الانسان ، فستخرج من المقارنة والموازنة بألا مقارنة ولا موازنة ، وستجد مزيدا من الضوء ينير لك بعض ما ينطوى تحت قوله تعالى « هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه » .

وسترى عن تجربة وصدق احساس أن العلم الصحيح هو الطريق الى الايمان الصحيح « انما يخشى الله من عباده العلماء » .

(الصـــلاة)

كلمة الصلاة تطلق على عدة معان تختلف باختلاف المقام ولكنها تلتقى فى معنى واحد عام .

فالدعاء . والتعظيم . والرحمة . والبركة . والاستغفار . والعبادة التى تشتمل على ركوع وسجود .. كل منها تسمى صلاة .

ومن ثم قيل ان الصلاة من الله رحمة . ومن الملائكة استغفار ، ومن الناس دعاء .

فاذا قلت : اللهم صل على النبى كانت صلاتك عليه دعاء له وثناء عليه وصلاة الله عليه تكريمه وتعظيمه .

وهذه العبادات التى نؤديها كل يوم خمس مرات تسمى صلاة لانها تشتمل على الدعاء ، وتعظيم الله بالركوع والسجود له . وما الى ذلك من أقوال وأفعال ، أو لانها تشتمل على تحريك الصلوين وهما نهايتا الوركين عند التقائهما بنهاية العمود الفقرى .

ومن ذلك سمى الفرس اللاحق فى السباق مصليا ، لان رأسه تكون عند ذنب السابق . وفى ذلك يقول الشاعر العربى :

ان تبتدر غاية يوما لمكرمة تلق السوابق منا والمصلينا

(اقامة الصلاة)

ومعنى اقامة الصلاة تأديتها سليمة قويمة ، لا عوج فيها ولا انحراف فانك تقول قام الامر بمعنى استقام . وقومته جعلته مستقيما ومن ذلك قول عمر رضى الله عنه فى جمع من المسلمين :

فان رأيتمونى على حق فأعينونى ، وان رأيتمونى على باطل فقومونى وقول عربى فى الرد عليه : « والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا»

واقامة الصلاة تكون باتقان أعمالها من القيام ، والركوع والسجود، وفهم أقوالها من التكبير والقراءة . والتشهد . والتسبيح والدعاء، والاقبال عليها ، والنشاط لها ، والتضرع فيها ، واستيفاء كل مايحقق لها الصحة والسلامة ـ كالوضوء وعدم الاشتغال فيها بغيرها وما الى ذلك ، وهى بذلك تكون داعية لكل خير ، ناهية عن كل شر « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » . ومن ثم لم يأمرنا الله بمجرد الصلاة ، وانما أمرنا باقامتها وادامتها والمحافظة عليها « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى »

(صورة مثيرة)

لا حظ فى الاسلام لمن ترك الصلاة .

هذه كلمة عمر رضى الله عنه ، وهو فى آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، فقد فاجأه أبو لؤلؤة وهم يؤم الناس لصلاة الصبح فطعنه بخنجر عدة طعنات كانت احداهن تحت سرته ، فلم ينس رضى الله عنه ، وهو يسقط فى المحراب ، أن عليه ما بقى على قيد الحياة اقامة الصلاة ، فنادى : هل فى الناس عبد الرحمن بن عوف ...؟ قالوا نعم . هو ذا ، قال : تقدم فصل بالناس ـ وظلت الصلاة قائمة والقائم بأمر الاسلام والمسلمين طريح ، يتدفق الدم من أمعائه وأحشائه ، وظل المسلمون فى صلاتهم . لا يشغلهم عن الله أمر سواه . حتى ولو كان هذا الأمر قتل عمر . وهو الذى كان أسلامه استجابة من الله لدعوة نبيه عليه الصلاة والسلام حين قال : « اللهم أعز الاسلام بأحد العمرين »

ومما يذكر فى هذا الشأن أنه ـ رضى الله عنه ـ بعد فراغهم من صلاتهم كان يغشى عليه ، ولا ينتبه لهم اذا دعوه ، فقال لهم بعض عارفيه: انكم لن تفزعوه بشى مثل الصلاة ان كانت به حياة ، فنودى : الصلاة الصلاة . فلما سمع النداء فتح عينيه وفاه بكلمات متقطعات . ثم قال : لا حظ فى الاسلام لمن ترك الصلاة .

هذه الصورة المثيرة بعض ما يفسر به اقامة الصلاة وبيان ما كان لها من قيمة عظيمة فى نفوس المسلمين .

(مكانة الصلاة)

قلت ان الصلاة عنوان العبادات البدنية ، ووعدت بتفصيل ما أجملت ولكن التفصيل يحتاج الى كلام طويل • فليذكر القراء موقف عمر وقوله وهو يجود بآخر أنفاسه : لا حظ فى الاسلام لمن ترك الصلاة ، وليذكروا أن الله أمر بالمحافظة عليها وأدائها فى الحضر والسفر . والامن والخوف والسلم والحرب • وقال فيها « ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا»

وليذكر القراء معانى كلمات الفاتحة التى تقـــرأ فى كل ركعة من الصلاة والجملة التى تفتتح بها الصلاة ، ثم تصحب انحناء الظهر بالركوع واستواءه بالرفع منه ، وانخفاض الرأس بالسجود وارتفاعه بالرفع منه•

ليتأمل القارىء الكلام الذى يقال فيها . والنظام الذى تقوم عليه والسلام الذى تختتم به • فسيعرف أن عقله وقلبه ولسانه وجوارحـــه تتجاوب كلها بمعان قدسية تطهره طهارة نفسية ، كما أن الوضـــوء الذى يسبقها يطهره الطهارة الحسية •

انها بالكيفية التى عرفها المسلمون من النبى صلى الله عليه وسلم اذ قال « صلوا كما رأيتمونى أصلى » نشيد مجيد مصحوب بحركات بدنيـــة تؤدى مع الكلمات ما لا يتسع له بيان انسان •

هذا الى أن فيها من الحج الاتجاه نحو الكعبة ومن الصيام النظام الذى يلتزمه كل صائم •

فاذا رأيت انسانا يتخذها رداء رياء ، أو أداة صيد أو كيد • فاعذر الشاعر الذى قال فيه وفى مثله :

اذا رام كيدا بالصلاة مقيمها فتاركها عمدا الى الله أقرب

(الزكاة)

« ومما رزقناهم ينفقون »

هذه هى الصفة الثالثة من صفات المتقين الصادقين •

لقد عرفنا الايمان بالغيب • واقامة الصلاة • وقبل أن نتحدث عن الانفاق من رزق الله فى سبيل الله أحب أن أوجه النظر الى أنه الثمرة التى ننتفع بها وينتفع بها المجتمع نتيجة للايمان وما يتفرع عنه من عبادات •

ان الله غنى عنا ، وعن ايماننا ، وصلاتنا له ، فلن نضيف اليه بأيماننا شيئا ، ولن ننقص منه بكفرنا شيئا « يأيها الناس أنتم الفقراءالى الله والله هو الغنى الحميد » « ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جـــديد ، وما ذلك على الله بعزيز » .

ان ثمرة الايمان بالله ، وامتثال أمره تعود على الفرد وعلى المجتمع بالخير الشامل والنفع العام •

ومن ثم كان من سمات المتقين الانفاق فى سبيل الله ، على أســـاس الايمان بأن ما فى أيديهم من مال : انما هو رزق ساقه الله اليهم فليس لهم أن يبخلوا به ويحرصوا عليه ، فانهم وما ملكت أيديهم لله ، والى الله .

(الرزق)

الرزق هو الحظ والنصيب ٠

تقول رزقك الله مالا ، أو جاها ، أو صحة . أى أعطاك حظا منها .

غير أن العرف ضيق مفهوم هذه الكلمة ٠ فجعل المرزوق انسانا أو حيوانا دون غيرهما ، وجعل الرزق خاصا بكل ما يتمكن منه وينتفع به الانسان والحيوان دون غيرهما ، كما ضيق مفهوم كلمة دابة فجعله خاصا بذوات الاربع بعد أن كان عاما يشمل كل ما يدب على وجه الارض ٠ ثم كان خلاف العلماء حول الحرام هل يسمى رزقا أو لا ٠٠٠ ؟

انه كما سترى خلاف لطيف اذا أخذ على أنه ترف عقلى ومبـــــاراة رياضية ذهنية ، فانهم لا يختلفون فى أن الانفاق الممدوح فى قوله تعـالى « ومما رزقناهم ينفقون » هو الانفاق من المال الحلال لان الله طيب لا يقبل الا الطيب ، وقد قال سبحانه « ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون » وســـئل النبى صلى الله عليه وسلم عن امرأة تزنى وتتصدق فقال : « ليتها لم تزن ولم تتصدق » ٠

(وجهات النظر)

يقول المعتزلة ان الله منع الانتفاع بالحرام ٠ وأمر بالزجر عنه ولهـذا يستحيل عليه أن يمكن الانسان منه ، فما يصل الى يد الانســـان من مال حرام لا يسمى رزقا ٠

ويقول أهل السنة كلا ٠٠٠ بل كل ما يتمكن الانسان منه وينتفع به يسمى رزقا ، هبوا أن انسانا عاش طول حياته من حرام ألا يكون مرزوقا وقد قال الله « وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها ٠٠٠ ؟

ويمضى هؤلاء وأولئك فى خلاف طويل ، يعارض فيه الدليل بالدليل ولكنه ــ كما قلت ــ خلاف جميل اذا نظر اليه على أنه مبـــاراة عقليـة ٠ ورياضة وذهنية ٠٠

فانهم لا يختلفون فى مدح الحلال والانفاق منه ، وذم الحرام والانفاق منه ، ولا يختلفون فى أن الله هو الخالق الرازق ولا فى أن قدرته هى التى أوجدتنا ، وأوجدت فينا القدرة على الكسب ٠ وكان منهـــا وجود كل ما فى الوجود ، وان اختلف التعليل والتأويل ٠

(الانفاق)

تستعمل هذه الكلمة فى معنى الذهاب والخروج ، كما تستعمل كلمة نفد وكل كلمة أول حروفها الاصلية « نون » وثانيها « فاء » ٠

ومن ذلك نفق الرجل بمعنى مات ، وكذلك نفقت الدابة ٠ وتقول أنفقت الدراهم بمعنى أفنيتها وأذهبتها ٠٠٠

وهكذا نكاد نلحظ أن بذل المال فى شراء سلعة ، أو قضاء حاجة ، أو تحقيق منفعة ٠ لايسمى انفاقا ٠

ومن ثم كان البذل الممدوح هو الذى يقوم على الايثار والتضحية لا ذلك الذى يدفع اليه الرياء ٠ والتظاهر بالجود والسخاء ٠ أو الرغبة فى تحقيق منفعة أكبر وأكثر ٠

وفى ضوء هذا ينبغى أن نفهم قوله تعالى « ومما رزقناهم ينفقون »٠

على أن الانفاق الممدوح هو انفاق بعض ما رزقهم الله كما يستفاد من كلمة « مما » فذلك هو الطريق الوسط بين البخل والتقتير ٠ والاسراف والتبذير ، وهو طريق الذين مدحهم الله بقوله : « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » ٠

(وجوه الانفاق)

يرى بعض المفسرين أن المراد بالانفاق فى قوله تعالى « ومما رزقناهم ينفقون » هو الزكاة المفروضة ٠

ودليلهم على ذلك ــ أن الزكاة أخت الصلاة ، لا تكاد تفترق عنها فى كثير من الآيات ، فاذا ذكر الانفاق بعد اقامة الصلاة ــ كما هنا كان المراد به هو الزكاة ٠

ويرى غيرهم أن المراد به كل ما ينفق فى سبيل الله سواء أكان زكاة أم صدقة تبرع وتطوع ٠

ودليلهم على ذلك أن الانفاق ذكر مطلقا ٠ ولم يقيد بشىء ومن ثم يشمل كل ما يبذل فى سبيل الخير والبر ، سواء أكان فرضا مطلوبا أم نفلا مندوبا ٠

أما وجوه الانفاق فتجمعها على كثرتها كلمة سبيل الله ٠٠٠

اعانة المحتاج بالمال انفاق فى سبيل الله

بذل المال لانشاء مدرسة ٠ أو بناء مؤسسة انفاق فى سبيل الله ٠

الاسهام فى اكتتاب عام لاقامة معمل أو مصنع يسد حاجة البلاد انفاق فى سبيل الله ٠

التبرع لاعانة المجاهدين فى الجزائر ونحـوها واغاثة اللاجئين فى فلسطين انفاق فى سبيل الله .

بعبارة قصيرة ... كل ما تقدمه للخير والبر انفاق فى سبيل الله

(الكتب السماوية)

« والذين يؤمنون بما أنزل اليك ومـا أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » .

هذه هى الصفة الرابعة من صفات المتقين .

انها الايمان بالقرآن وبكل ما أنزل الله من كتب قبل القرآن الذى أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام ، فان كتبه كلها سلسلة متناسقة متوافقة لا انحراف فيها ولا اختلاف بينها . لانها من لدن حكيم عليم ، لا يتعارض كلامه . ولا تتناقض أحكامه .

القرآن باجماع الجاحدين له والمؤمنين به لم يصب بتحريف أو تزييف ، وقد جاء مصدقا لما سبقه من الكتب . ووصف التوراة بأنها هدى ونور . ووصف الانجيل بأنه هدى ونور . وأنه مصـدق لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ،

لماذا اذا هذا الانحراف والاختلاف .. ؟

لماذا تشقى الشعوب بالحروب . والكوارث والخطوب .. ؟

انها الشهوات المفضوحة . واللهوات المفتوحة .

انها هى التى انحرفت وحرفت . واختلفت وخالفت .

أما كتب السماء فكلها دعوة الى عبادة اله واحد . والى السـلام والوئام . والتضامن والتعاون بين الانام .

ولا يزال القرآن ـ وسيظل ـ يدوى صوته فى مسمع الدنيا بهذا النداء « يأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله »

من قبل . لا من بعد

وقفت عند كلمة « من قبلك » فى قوله تعالى « والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك » .

وتذكرت ما أثير ويثار من ضجة حول كتاب تنشط للدعـاية له أجهزة أجنبية . ليقع فى روع الناس أنه أنزل بعد القرآن الكريم على نبى جديد ، بدين جديد ، يوحد بين الاديان وينشر بينها ظل الاخاء والسلام .

كأن الديانات السماوية كانت تنقصها هذه الدعوة فأتمها الدين الجديد ..

اننا نؤمن بكل الانبياء والرسل ، وبأن محمدا عليه السلام خاتم الانبياء والرسل .

نؤمن بالكتب التى أنزلت على الرسل ، وبأن القرآن جاء خاتما ومتمما لهذه الكتب .

ذلك ما يفهم من قوله تعالى : « والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك » ، وما يفهم من قوله فى محمد عليه الصلاة والسلام « ولكن رسول الله وخاتم النبيين » فان ختم النبوات به يستلزم ختم الرسالات به كذلك ، لان كل رسول نبى ، وليس كل نبى رسولا ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا نبى بعدى » فلا نبى بعده ولا رسول تبعا لذلك بعده عليه السلام .

فاذا سمعنا بمثل هذه الدعايات والمحاولات فيجب أن نذكر أن وراءها عقلية استعمارية تحتال ، وتتصيد أى محتال ، لتهدم الاسلام . لانه نظام يجتمع عليه مئات الملايين ، فاذا انهار انهار معه المجتمع الاسلامى . وبذلك يأمن الاستعمار المقاومة ويضمن المسالمة.. وهيهات.

(اليقين بالآخرة)

« وبالآخرة هم يوقنون » .

اليقين هو العلم الذى لايشوبه ارتياب . ولا تصيبه شبهات .

والصفة الخامسة من صفات المتقين هى الايقان بالدار الآخرة بحسابها ، بثوابها وعقابها ، بنعيمها وجحيمها ـ بأنها آتية لا ريب فيها

ان الدار الاولى ـ وهى هذه الدنيا ـ دار عمل واختبار ، والدار الآخرة هى دار الحساب والجزاء .

واذا عرف المؤمن أن الله عادل ، وأن الدنيا تموج بالمظالم والمآثم أدرك ـ كما ذكرنا سابقا ـ أن عدل الله يستحيل عليه أن يفلت منه ظالم أو ينجو منه آثم . الا بعفو منه ، وصفح عنه ، كما أنه سبحانه يستحيل عليه الكذب . وقد أخبر بالدار الآخرة ـ فلابد من المصير اليها والحياة فيها .

وهذا الايمان يمد فى وجود الانسان ، ويملؤه احساسا بأنه خالد وأن خلوده يقتضيه ضريبة العمل الصالح . والسعى الحميد ، واستثمار كل ما يملك من جهد ووقت فيما ينفع ويفيد .

وبذلك يعيش مكرما فى الدنيا ، منعما فى الآخرة ، « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا . »

(ثمرة التقوى)

« أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » ·

بهذه الاشارة اللافتة التى تفهم من كلمة « أولئك » يوجه الله نظر رسوله ونظر كل ذى نظر . ممن يتأتى خطابهم ـ وهم ذوو الافهام والعقول ـ الى أن المتقين الذين ذكرت أوصافهم فيما سبق » ·

« الذين يمتثلون ما أمر الله به · ويجتنبون ما نهى عنه بدافع الطمع فى ثوابه · والخوف من عقابه ·

« الذين يؤمنون بكل ما أخبر به الله مما لا يقع تحت الحواس · ولا يخضع لتجارب الناس ·

« الذين يؤدون الصلاة فى أوقاتها مستوفاة الشروط · مستكملة الأركان · سليمة من كل ما يعيبها ، قويمة لا انحراف فيها ، خالصة لوجه الله تعالى ·

الذين ينفقون مما رزقهم الله · فيؤدون زكاة أموالهم ويجودون على المحتاجين من الفقراء والمساكين بما يعينهم على الحاجة ويصونهم من الفقر ·

الذين يؤمنون بالقرآن · وبكل كتاب سماوى أنزل قبل القرآن ، ويرون فى الاسلام الدين الجامع للفضائل ، المتمم لكل دين ·

الذين يعتقدون أنهم سيردون الى الله فى الحياة الآخرة بعد الموت · وسيحاسبون على كل ماقدموا من خير أو شر ·

هؤلاء هم الذين مكنهم الله من الهدى · وثبتهم عليه ، وهذا الهدى الذى مكنهم الله منه وثبتهم عليه من ربهم الذى يعلم كل ما خفى من أسرارهم ، واليه يرجع كل أمر من أمورهم ، لا من غيره ممن يضل ويزل ، ولا يبلغ من العلم والتوفيق والقدرة ما يعصمه من الخطأ والشر ، ويقيمه على الحق والخير ·

هذه هى الثمرة الاولى من التقوى ، أما الثمرة الثانية فتفهم من قوله تعالى « وأولئك هم المفلحون » .

(المفلحون)

الفلاح هو الفوز ·

فاذا سمعت المؤذن يقول حى على الفلاح فافهم انه يدعوك الى الفوز والنجاح ·

وكلمة «أولئك» كما ذكرنا ـ سابقا ـ تشير الى المتقين الذين عرفتهم بسماتهم وصفاتهم ·

والاشارة بهذه الكلمة يفهم منها أن الهدى الذى مكنهم الله منه ·

وجعله سبيلهم الى الفوز ، ودليلهم الى النجاح ، انما كان بسبب هذه الصفات ، وأن الفوز الذى وصلوا اليه ، وحصلوا عليه ، كان كذلك بسبب هذه الصفات .

فالايمان بالله وبكل ما أخبر به من غيبيات ، واقامة الصلاةوالانفاق فى سبيل الله ، والايمان بما أنزل على محمد ، وما أنزل على الانبياء قبله من المكتب ، والايقان بالدار الآخرة .

هذه الصفات هى التى جعلتهم دون غيرهم ، على هـدى من ربهم ، وهذه هى نفسها الصفات التى جعلتهم — دون غيرهم — المفلحين

فالهدى من ربهم مزية ينفردون بها عن غيرهم .

والفوز فى الدنيا والآخرة مزية ينفردون بها عن غيرهم ..

انهم لا يمتازون بمجموع الامرين فحسب،بمعنى ان غيرهم يشاركهمفى احدهما ، وانما كل واحد منهما مزية خاصة بهم .

أما ان الفوز يشمل الدنيا والآخرة فيؤكده قوله تعالى « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »

وبعد . فهؤلاء هم الذين أنعم الله عليهم .

(كلمة جامعة)

انها كلمة واحدة ، ولكنها تسع كل معانى القرآن ، وكل الدعوات والرسالات التى جاء بها المرسلون قبل القرآن .

أتدرون ما هذه الكلمة ... ؟

انها « الحق » .

وتفسرها كتب اللغة بعبارة موجزة فتقول : « انه ضد الباطل »ثم تسهب وتطنب . وتخرج آخر المطاف بأن « الحق » هو الثابت اللازم .

فالقرآن « حق » لانه ثابت لازم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وفى ذلك يقول الله « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » .

والاسلام حق ، لأنه ثابت لازم لا يأتيه الباطل ، وفى ذلك يقول الله لرسوله عليه السلام « فتوكل على الله انك على الحق المبين »

والرسالات التى حملها المرسلون حق ، لانها من عند الله ، وفى ذلك يقول الله : « وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين ويجـادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق .

ويوم الجزاء « حق » لانه ثابت لازم ، وفى ذلك يقول الله « ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ الى ربه مآبا » .

على هذا نستطيع أن نسمى الذين أنعم الله عليهم فهداهم الصراط المستقيم ، وثبتهم عليه ، ويسر لهم أسباب الفوز والفلاح أهل الحق .

(الحق أيضا)

والحق أيضا ـ كل قانون كونى ثابت من القوانين التى أقام الله عليها الوجود والطبيعة مثل القوانين التى اكتشفها العقل فى الضوء ، والحرارة ، والجاذبية . وما اليها من الاسرار التى باحت بهـــا البحوث العلميـــة واستخدمها العلماء فى الزراعة والصناعة ، والاختراعات الحديثة .

وقد أرشدنا الله الى ذلك حيث يقول « ما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق » .

وهكذا نكاد نعتقد ان البقاء جزء من مفهوم الحق ، وأن النصر معقود بلوائه مهما طغى الباطل . وكثرت جنوده وحشوده ، ومصداق ذلك من كتاب الله قوله تعالى « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق »

وقد شبهه جل شأنه بالماء ، وشبه الباطل بالزبد الذى يطفو فوق سطحه ، وقال : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

كذلك كان شأن الكافرين وما اجتمعوا عليه من الباطل مع المؤمنين وما حرصوا عليه من الحق .

وكذلك سيكون الشأن دائما بين أهل الحق وأهل الباطل

فلاحظ هذا تمام الملاحظه ، ولا تفرط فى حق الله عليك وحق المجتمع نحوك ، وحقك على غيرك .

واذكر أن من أسماء الله الحق ، لانه الباقى بعد فناء الخلق » .

ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم
لا يؤمنون (٦) ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى
أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم (٧) .

(الكفر ... والكافرون)

اذا تذكرت ما قلناه فى الايمان والمؤمنين ، والتقوى والمتقين أمكنك أن تعرف الكفر ـ وقاك الله منه ـ والمنافقين ـ حفظك الله منهم .

فان الكفر والنفاق فى الطريق المقابل للايمان والتقوى ، وبضدها تتميز الاشياء ، والشيء يظهر حسنه الضد . كما يقول الشاعر .

ان كلمة « كفر » تدل فى شتى استعمالاتها على التغطية والستر ومن ذلك قيل فى الليل والظلام . والسحاب انه « كافر » لانه ساتر ، وقيل فى الزارع والدارع «كافر» لان الاول يستر الارض ويخفيهابالزرع والثانى يستر صدره ويخفيه بالدرع .

وقيل فيمن يجحد النعمة كافر ، لانه يخفيهـــا ، وينكرها ، ولا يعترف بها .

لهذا سمى كافرا من ينكر الحق ويحاول اخفاءه ، وبعبارة اصطلاحية أخرى . من أنكر ما علم بالضرورة أن الرسول جاء به من أصول الشرع والدين سواء أكان الانكار بالقلب واللسان أم بالقلب دون اللسان .

انهما فريقان يجمعهما الكفر فى عنوان ، ويقفان مع الشـيطان فى الطرف المقابل للحق والايمان .

فريق الطغاة العتاه الذين صرحوا بالكفر ، وهؤلاء ذكرهم الله فى هاتين الآيتين من مطلع هذه السورة ، وفريق المنافقين الذين أظهـــروا الايمان وأضمروا الكفر ، وهؤلاء أكثر خطرا وشرا من أولئك ، وقد ذكر الله صفاتهم وأقوالهم وأعمالهم فى ثلاث عشرة آية .. سنذكرها بعـــد هاتين الآيتين .

(قوى الشر)

مامن دعوة دينية جاء بها نبى ، أو خطة اصلاحية هتف بها مصلح الا هبت لمقاومتها الاعاصير الرعن ، وحيكت من حولها الفتن الســـود ، وتداعت لمناوأتها قوى البغى والطغيان ..

التقليد البليد الجامد الذى عرفه بعض الناس ، والفوه ، وجمدوا عليه ، فلم يقبلوا فيه تعديلا ولا تبديلا .

الوضع الاجتماعى الفاسد الذى ينتفع به الفاسدون المفســـدون ويرون فيه وفى الدفاع عنه دفاعا عن مناصبهم ومصالحهم ..

الشـــهوات الطامحة الجامحة التى لا تعرف غير حاجتها . ولا تستهدف غير متعتها ·

الجهل المعتم المظلم الذى ينحدر به العقل ، ويتحجر به القلب ، ويموت فيه الضمير ·

العناد الذى يغذيه الغرور والشعور بالكبر ، ويتعهـــده الشيطان فينفخ فى صاحبه روح الشر ، ويقوده الهوى الى البغى والعدوان ··

هذه الآفات والاوضار وما اليها تتراكم على نفوس بعض الناس حتى تسد عليهم منافذ الاحساس ، فلا يبصرون بأعينهم نور الحق ولايسمعون بآذانهم صوته ، ولا يفكرون بعقولهم فيه ···

وهذا ما تبجح به كفار قريش حين عارضوا الرسول وقـد جاءهم بالهدى ودين الحق ، فقالوا « قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليـــه · وفى آذاننا وقر · ومن بيننا وبينك حجاب » ·

(اصرار على الانكار)

« ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون »

الانذار هو التخويف · أو الاخبار بما يخيف · وذلك لغـــرض التحذير من عمل ما يؤدى اليه ··

وكلمة « سواء » تطلق ويراد بها معنى « مستو »

فالله سبحانه وتعالى يؤكد للنبى صلى الله عليه وسلم أن الانذار وعدمه يستويان فى عدم التأثير على الكافرين · الذين أنكروا وجود الله وهو معهم أينما كانوا ، وأنكروا رسالة محمد عليه السلام وقد جاءهم بالهدى ودين الحق ، وكفروا بنعمة الله عليهم ورحمته بارسال محمد اليهم كمايفهم من قوله « وما أرسلناك الا رحمة للعـالمين » وأنكروا القرآن وهو يتلى عليهم ، ويحمل اليهم كل ما جاءت به الرسالات السماوية وحمله الانبياء والرسل ، ويتحداهم وهم فى أوج تقدمهم الادبى أن يأتوا بسورة من مثله ·

هؤلاء الجاحدون المعاندون يستوى فيهم الانذار بالعذاب وعدمه ، فقد وصلوا فى غلوهم وعتوهم الى درجة لا مطمع فيها لايمان ، فلا تتعب نفسك معهم ، ولا تذهب نفســك عليهم حسرات · فليس عليــك الا البلاغ وقد بلغت ، وعلينا حسابهم وعقابهم ·

(سيان)

اذا صادف الانذار أذنا واعية · ونفسا صاغيــة · وقلبا مؤمنا كان تأثيره هو التقوى التى عرفناها عند الحديث عن المتقين ، وهى تقوم ــ كما قدمنا ــ على أساس الخوف من عقاب الله والطمع فى ثوابه·· أما اذا صادف

عقلا جامدا ، وقلبا جاحدا ، وأذنا صماء ، فانه يفقد تأثيره لانه لم يصادف تربة خصبة تصلح له ، وتفلح به .

ان التأثير بالانذار يكون بعد تفتح العقل والوجدان لنور الايمان والايمان سبيله النظر الحكيم .. والبصر النافذ . والادراك السليم،والذين كفروا لم ينظروا فى آيات الله . ولم يعتبروا بما يرون فى مخلوقاته ، وما يسمعون من كلماته ، ولم يؤمنوا به ، فانذارهم وعدم انذارهم سيان لأنه لا يحملهم على الايمان .

أما سبب ذلك ففى قول الله بعد ذلك « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » وفى قول الشاعر :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

(نوافذ العلم ...)

انهم أغلقوا نوافذ العلم والادراك ، والعلم هو السبيل الى الايمان .

أرأيتم الى الأبواب التى تغلق ، ويحكم اغلاقها ، ثم تختم بخاتم للاستيثاق من الاغلاق ... ؟

أرأيتم الى « الصرة » تهيأ لارسالها عن طريق البريد فيكون آخر عمل فيها لحفظها هو الكتم والختم ..؟

ان قلوب الكفار أغلقت على الكفر ، وأحكم اغلاقها بالكتم والختم ، وأسماعهم كذلك أطبقت عليه ، وأحكم اطباقها بالكتم والختم ؛ وأعينهم تغشاها سحابة مظلمة لا ترى من خلالها الا الظلام « لهم قلوب لا يفقهون بها . ولهم أعين لا يبصرون بها . ولهم آذان لا يسمعون بها » .

ولو أن قلوبهم تفتحت بالتأمل ، وأسماعهم أصغت الى ما يتلى عليها، وأعينهم أبصرت ما تراه وتقع عليه من عجائب المخلوقات، لكان لهم من هذه الحواس علم نافع باستخدامها فيما خلقت له ولكنهم لم يستخدموها فيما ينفعهم ولم يقدروها حق قدرها ويشكروها حق شكرها فكان الجهل ، وكان الكفر ، وكان الاصرار على الكفر ؛ « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » .

(آراء ...)

الغشاوة اسم لما يشتمل على الشيء ويغشاه .

والعذاب هو الضرب ، ثم استعمل فى كل عقوبة مؤلمة ، ثم استعير للامور الشاقة ، ومن ذلك القول المشهور : السفر قطعة من العذاب ..

والعظيم ضد الحقير ، وهو فوق الكبير . كما أن الصغير فوق الحقير

وقوله تعالى « ختم الله على قلوبهم · وعلى سمعهم · وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » يقصد به ـ والله أعلم ـ تشبيه هيئات هذه الحواس التى حال التقليد والهوى والاستغراق فى الشهوات دون تسرب الايمان اليها ·· بالهيئات المادية التى نشهدها فى الاشياء التى يحكم اغلاقها .. وتكتم ثم تختم . حتى لا يدخلها شيء ، ولا يخرج منها شيء .

وقد ذكر المفسرون وجوها أخرى كثيرة ، منها التعريض بأن هؤلاء كالبهائم التى طبع الله قلوبها وأسماعها وأبصارها على ألا تتجاوز نطاق ما تمليه النحيزة ، وتوحى به الغريزة ·

ومنها أن التعبير بجملة « ختم الله على قلوبهم » هو الرد المناسب المؤلم القاسى على قولهم « قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه ، وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب » ·

نسأل الله أن يقينا شرور أنفسنا ، وأن ينفعنا ويمتعنا بقلوبنا وأسماعنا وأبصارنا ·

(وجهة نظر أخرى)

أبدى لى زميل فاضل وجهة نظر أخرى فى فهم هذه الآية وهى تتلخص فى أن ختم الله على قلوب الكافرين وأسماعهم كان عقابا لهم على اعراضهم عن آياته ، وتماديهم فى الاثم والظلم والعصيان ، كما يرشد الى ذلك قول الله فى موضع آخر : « بل طبع الله عليها بكفرهم» ·

وهى وجهة نظر معقولة ، مقبولة ، يؤيدها ماقيل من أن العادة طبيعة ثانية ، وقول النبى صلى الله عليه وسلم « من ترك ثلاث جمع تهاونا بها طبع الله على قلبه » ·

وقد قرأت لفضيلة المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز فى زيادة الايمان ونقصه « ان من اعتاد طاعة الله ازداد ايمانه ، ومن كثرت مخالفته لأوامر الله ضعف يقينه الى حد ما ، فان هو اعتاد ذلك لم يؤمن ثباته على الايمان » ·

نعم · المرآة تصدأ وتنجلى ، ولكنها اذا ما تراكم عليها الصدأ آنا بعد آن · لم تلبث أن يأكل الصدأ منها العنصر المضيء فيها ، والمعاصى ـ لو تعلمون ـ هى الصدأ الذى يغشى وجه الايمان » ·

وبعد · فهذا شأن المؤمنين اذا اختنق نور الايمان فى قلوبهم بظلام المعصية ، فكيف لا يختم الله على قلوب الذين كفروا · وجهروا بالكفر واعتادوا الشر والاجرام ···؟

(سؤال قديم)

سأل سائل • كيف يعاقب الله بالعذاب العظيم من ختم على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة ••؟

وهو سؤال قديم ثارت من حوله ضجة لا يزال صداها يملأ الآذان والأذهان •

ولايتسع المكان هنا لعرض الحجج التى تقابلت وتقاتلت بين أهل السنة والمعتزله ، ولكن يجب أن يفهم الجميع أن الجميع متفقون على أن الله خالق كل شيء ، خالق العبد ، وخالق قدرته على العمل عند المعتزلة ؛ وخالقه وخالق عمله عند أهل السنة •

أما مناط الثواب والعقاب فهو هذه الملكات والمواهب والحواس التى زوده الله بها • ليعرف الطيب من الخبيث ، فلم يستخدمها فيما ينفعه وينفع الناس ، ولم يتوخ فى استخدامها رضاء الله وخير الناس •

ونعود الى جواب السؤال بعد هذا الجواب العام • فنكرر أن الختم على القلب والسمع عقاب عاجل من الله بسبب اغفالهما واهمالهما وعدم استعمالهما فيما خلقا له ، والعذاب العظيم هو العقاب الآجل الذى ينتظر الكافرين •

ولعل هذا الجواب أيضا موضع اتفاق ورضا من الطرفين المختلفين فليذكر القراء ذلك ، وليذكروا مع ذلك « ان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون » •

(علام كان النزاع)

هذا ما كان من الذين كفروا ، وجهروا بالكفر . من مواجهة الانذار بالاصرار على الباطل ، وسد قلوبهم وأبصارهم دون الانتفاع بهداية الله والاستماع الى آياته • والنظر فى مصنوعاته •

فماذا كانت الدعوة التى واجهوها بهذا الاعراض ، وجابهوها بهذا الجحود والكفران ••؟

لنستمع الى جعفر بن أبى طالب يقول فى الحبشة للنجاشى :

كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الاصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ونقطع الارحام : ونسىء الجوار : ويأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا ، نعرف نسبه ، وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده : ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والاوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الامانة . وصلة الرحم . وحسن الجوار . والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش . وقول الزور . وأكل مال اليتيم . وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به .

(الشيخ عبده ...)

ويقول الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده بعد أن وصف الفساد الذى ساد كل الامم قبيل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ٠

وكانت الامة العربية قبائل متخالفة فى النزعات . خاضعة للشهوات فخر كل قبيلة فى قتال أختها ، وسفك دماء أبطالها ، وسبى نسائها وسلب أموالها ، تسوقها المطامع الى المعامع ، ويزين لها السيئات فساد الاعتقادات ٠

وقد بلغوا من سخافة العقل حدا صنعوا فيه أصنامهم من الحلوى ٠ ثم عبدوها ، فلما جاعوا أكلوها ٠

وبلغوا من تضعضع الاخلاق وهنا قتلوا فيه بناتهم تخلصا من عار حياتهن ، أو تنصلا من نفقات معيشتهن ، وبلغ الفحش منهم مبلغا لم يعد معه للعفاف قيمة ٠

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الاقوام أن يؤدبهم برجل منهم ، يوحى اليه رسالته ، ويمنحه عنايته ؛ ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم التى أظلت رءوس الامم ٠٠؟

نعم ٠ كان ذلك ٠ وله الامر من قبل ومن بعد ٠

« ومن الناس من يقـــول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين (٨) يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون (٩) فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضـــا ولهم عذاب أليم بمـــا كانوا يكذبون (١٠) واذا قيـــل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون (١١) الا أنهم هم المفســدون ولـكن لا يشعرون (١٢) واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون (١٣) واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون (١٤) الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيـــانهم يعمهون (١٥) أولئـــك الذين اشتروا الضـــلالة بالهـــدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين (١٦) » .

(النفاق والمنافقون)

عرفنا المؤمنين المتقين ، ورأيناهم فى الاطار الجليل الجميل الذى تشير اليه آية « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون»

وعرفنا الكافرين الذين جهروا بالكفر وأصروا عليه ، ولم يشكروا نعم العقل ، والسمع ، والبصر . باستخدامها فيما يعود عليهم بالعلم والايمان ، ثم رأيناهم فى الاطار الدميم الذميم الذى تشير اليه آية « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم . »

بقى قسم ثالث يجمع أخبث انواع الخبائث ، وهو قسم المنافقين الذين يظهرون الايمان ويضمرون الكفر ، « ويقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، يتظاهرون بالصلاح والرغبة فى الاصلاح . وهم حشرات آدمية تسعى بين الناس بالفساد ، يلقون المؤمنين بطلاء الرياء ويلقون الكافرين برداء الوفاء .

هؤلاء الذين جمعوا الى الكفر رذائل المكر . والغرور . والكذب والتمويه . والتماس المنفعة من كل طريق ، وبأية وسيلة وحيلة . هم أحط أنواع الكافرين ، وقد توعدهم الله بالدرك الأسفل من النار ، ووصفهم فى هذا المكان من القرآن بثلاث عشرة آية . ليكشف للمؤمنين سوء نيتهم . وفساد طويتهم ، حتى لا ينخدعوا بهم ، فيقعوا فى شباكهم وشراكهم .

(حيوان خبيث)

وقبل أن نمضى فى شرح هذه الآيات التى تصفهم . يحسن بنا أن نعرف لماذا يسمون منافقين .

من الحيوان نوع أوتى قدرا من الخبث والذكاء والدهاء يسمى « اليربوع » .

هذا الحيوان يتخذ مسكنه ومكمنه بين حجرين . أحدهما ظاهر ، تقع عليه العين . ويسمى « القاصعاء » والآخر باطن لا يلحظ الناظر اليه أنه جحر ويسمى « النافقاء » .

فاذا هوجم من جهة القاصعاء . ضرب برأسه مدخل جحر النافقاء ودخله واختفى فيه . وفر هاربا من مخرج آخر .

من ذلك سمى منافقا من يظهر غير ما يضمر ، وسمى « نفقا » السرب الممتد تحت الأرض الذى ينتهى بمخرج من جهة أخرى .

والمنافق من الناس حيوان آدمى خبيث ، أوتى قدرا من الذكاء والدهاء يتقن به الرياء . والتلون كالحرباء ، مظهره وضيء ، ومخبره ردىء ، يرضيك قوله . ويؤذيك فعله .

يعطيك من طرف اللســـان حلاوة

ويروغ منك كمـــا يــروغ الثعلب

وقـــد قسم بعض العلماء النفاق نوعـــين : نفاق الايمان ، وهو — كما قدمنا — أخبث أنواع الكفر ، ونفاق العمل وهو ما نلاحظه فيمن اذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر ، واذا أؤتمن خان ، وكلا النوعين جريمـة فى منطق الدين . رذيلة فى عرف الأخلاق .

(الكذب)

« ومن النـــاس من يقول آمنا بالله وباليـــوم الآخر وما هم بمؤمنين »

يمكن أن يفسر اليوم الآخـر بذلك الوقت الدائم الذى لا ينقطع ولا ينتهى عند حـد ، وسمى الآخـر ، لأنه آخر الأوقات التى تنقضى عند حد . وتحصى وتعد .

ويمكن أن يفسر بالوقت المحدود من البعث الى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، وسمى الآخر لأنه كذلك آخـر الأوقات التى تعد وتحد ، وما بعده أبد دائم لا يخضع لاحصاء واستقصاء .

يقول الله ان من الكافرين نوعا آخر ضعيف الشـخصية . خبيث الطوية ، لا يجهرون بالـكفر ، ولا يقنعون بالصمت ، بل يجمعون الى الكفر التمويه باللسان . فيقولون آمنـا بالله — والايمان به يسـتتبع الايمان بكمال صفاته والتصديق بكتبه ورسله — وآمنا باليوم الآخـر — والايمان به يستتبع الايمان بالثواب فى الجنة والعقاب فى النار وكل ما ورد فيه من أخبار ، وهم كاذبون فيما يقولون ، لأن كلامهم لا يطابق ما فى ضمائرهم وسرائرهم .

ان الايمان ليس كلاما فحسب ، وانما هو عقيدة مطمئنة فى نفس مطمئنة ، وتعبير صادق عن شعور واثق ، ثم عمل يتفق مع العقيدة ، ويتسق مع الكلام .

فأين هؤلاء من ذلك ، وهذا التكذيب ليس ممن يخطىء ويصيب وانما هو ممن يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

(الخداع)

« يخادعون الله والذين آمنـوا وما يخـدعون الا أنفسهم ومـا يشعرون » .

اذا أوهمك غيرك فى أمر خلاف مايخفيه لك من شر ، فزينه لك ، وحسنه أمام عينيك ، حتى انطلى الزور عليك ، فضللت أو زللت ثم وقع لك منه غير ماكنت تتوقع فيه ، ووجدت الشر فيما كنت تتوهم فيه الخير ، فأنت مخدوع وهو منافق خادع .

ان من أبرز سمات المنافق انه ماكر ماهر فى المكر ، يوهم غيره خلاف ما يخفيه من الامر ، ليخدعه عن الحقيقة ، ويوقعه فى الشر ، وهذه الآية تكشف هذه الصفة فى صورة أوضح وأقبح .

فهؤلاء الكافرون من المنافقين حين يكذبون ويقولون آمنا بالله وباليوم الآخر يرون أنهم بهذا الكذب يخدعون الله والمؤمنين به ، كأن الله لايعلم سرهم ونجواهم ، وكأن المؤمنين سينطلى عليهم الزور والبهتان .

ان هؤلاء أغبياء . من حيث يظنون فى أنفسهم الذكاء والدهاء انهم المخدوعون . من حيث يظنون أنهم خادعون .

فان الله لايخفى عليه شىء فى الارض ولا فى السماء . فكيف يخفى عليه أمرهم ..؟ » « ولا يحيق المكر السىء الا بأهله » فكيف لايحيق بهم خداعهم ومكرهم .

هذه حقيقة ملموسة محسة تدرك بالاحساس والشعور ، ولكنهم لايحسون ولايشعرون .

(حوار ...)

دار حوار حول كلمة « يخادعون » فى الآية السابقة .

فانه يفهم منه ان الخداع كان من الله والذين آمنوا كما كان من المنافقين .

لان المخادعة المفهومة من « يخادعون » كالمقاتلة المفهومة من يقاتلون » . والمخاصمة المفهومة من « يخاصمون » ، تدل على اشتراك الطرفين فى أصل الفعل ، فكيف يكون من الله خداع . وهو لايعقل منه سبحانه .. ؟ وكيف يكون من المؤمنين خداع وهو صفة لاتليق بهم ولا بايمانهم .. ؟

وقد أجيب بأن امهال الله للمنافقين واستدراجهم ليطمعهم ويوقعهم فى السوء ، وامتثال المؤمنين لامر الله فيهم باعتبارهم ــ حسب الظاهر ــ مسلمين . وتطبيق حكم الاسلام عليهم .. سمى مخادعة على سبيل التمثيل لا الحقيقة ، وعلى طريق المشاكلة لا الواقع .

والرأى الذى ارتاح اليه انه فعل من جانب واحد يدل على المبالغة فى المعنى كما تدل كلمة « يداهم ، ويهاجم » وما اليهما من الافعال التى تقتضى جهدا وعناء وقوة احتمال .

مرض القلوب

« فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون » .

المنافق مريض القلب . معتل الخلق . سيىء التقدير .

انه جبان يمنعه الجبن أن يجهر برأى أو يظهر بموقف ، والجبن كالمرض يصحبه ضعف ، ويعقبه ضعف .

انه حسود . يجمع الى الغيظ الشعور بالالم من المحسود . والحسد علة نفسية كالمرض وهو علة حسية ، وفى كليهما ألم .

انه مغرض يجرى مع هواه فى كل اتجاه ، والغرض كالمرض يفسد معه الذوق ، ويجور به الحكم ، ويسوء فيه السلوك .

هذه المعانى كلها تحتملها وتحتمل أكثر منها كلمة « مرض » فى هذه الآية .

وقد كان المنافقون اذا لقوا الذين آمنو قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليهم الأنامل من الغيظ

وكانوا من الجبن بحيث اذا اقتربت الحرب ودعوا اليها دارت أعينهم « كالذى يغشى عليه من الموت » .

وكانوا من الحقد والحسد وتربص الشر بالمؤمنين كما يصفهم الله بقوله « أن تمسسكم حسنة تسؤهم . وان تصبكم سيئة يفرحوا بها »

وقد زادهم الله مرضا بما حقق للمؤمنين من انتصارات ساحقة متلاحقة ، وتوعدهم بالعذاب المؤلم الدائم اللازم على الكذب الذى تستروا به دون حياء ، وجعلوه قناعا للخداع ، واخفاء الأطماع .

(الفساد .. والافساد)

« واذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون »

الفاسد هو الذى لا ينتفع به ، فالفساد آفة متلفة تشمل كل ضار وعلى العكس من ذلك الصالح والصلاح .

والفساد فى الأرض يعنى اتلاف ما فيها من نبات أو حيوان أو انسان أو كل هذه الاشياء ، وذلك باشعال نار الحروب . وحياكة الدسائس واثارة الفتن .

وقد كان ذلك ــ ولا يزال ــ عمل المنافقين قديما وحديثا ، فكانوا يتسللون الى صفوف المؤمنين تحت التستر بشعار الاسلام . ليعرفوا

اخبارهم وأسرارهم ، ثم يكاشفوا بها أعداءهم ، ويوغروا صدورهم عليهم . ويظاهروهم اذا جد الجد . وقامت الحرب .

وكانوا اذا نهوا عن الافساد فى الأرض زعموا أنهم لا عمل لهم الا الاصلاح ، لا ينحرفون عنه ، ولا يتجاوزونه الى غيره .

وقد نبه الله المؤمنين الى خطر هؤلاء ، وأكد لهم أنهم لاعمل لهم الا الافساد ، ولكن الهوى ــ وهو مرض قلوبهم ــ يزين لهم سوء عملهم فيرونه اصلاحا ولا يحسون أنه افساد ، لانهم فقدوا الاحساس والضمير والشعور .

(السفه والغرور)

« واذا قيل لهم آمنو كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء الا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون » .

السفه هو الجهل ، وخفة الحلم ، وسخافة العقل .

والايمان ــ كما ذكرنا وكررنا ــ طريقه العلم الصحيح ، والنظر السليم ، والتفكير السديد .

والمؤمنون هم الجديرون بأن يطلق عليهم اسم « الناس » بحق وصدق ، وغيرهم كالسوام والانعام التى لاتعرف غير الماء والطعام ، اذ لايعنيهم من الحياة الا اشباع الحاجة . وامتاع الشهوة ، ولا يهمهم ماوراء هذين من قيم فاضلة . ومثل عالية .

وقد كان المنافقون من الكافرين اذا نصحهم ناصح بأن يسلكوا سبيل من كمل فيهم معنى الانسانية . فآمنوا بالله وبكتبه وبرسله أخذهم الغرور ، وزعموا أن مسلكهم هو المسلك السليم ، وأن منهجهم هو المنهج القويم . وأن هؤلاء المؤمنين سفهاء جهلاء . لا يصح ــ فى تقديرهم ــ الاقتداء بهم ، والسير فى طريقهم .

وقد رد الله عليهم قالتهم ، وأكد جهالتهم ، فقال : « ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون » لأنهم لم ينظروا ولم يفكروا الا فيما تفكر فيه السوام والأنعام .

(التلون .. والرياء)

« واذا لقوا الذين آمنو قالوا آمنا ، واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون »

خلا فلان الى فلان بمعنى انفرد معه .

والاستهزاء هو الاستخفاف والسخرية

والشيطان كل متمرد من الانس والجن . والدواب ، بل ومن غير ذلك كالحسد ، ومن ذلك قيل .. الحسد شيطان .

والمنافق ذو وجهين . يلقى هذا بوجه ، ويلقى ذاك بوجه .

وقد ورد فى ذى الوجهين أنه ملعون .

وكان المنافقون اذا اجتمعوا بالمؤمنين وواجهوهم أعلنوا لهم أنهم آمنوا ، واذا انصرفوا الى اخوانهم وشياطينهم الذين كفروا وجهروا بالكفر قالوا لهم : انا معكم على المؤمنين ، وانما نقابلهم ونجتمع بهم لنسخر منهم ، ونستخف بأحلامهم ، ونهزأ بهم .

وهكذا نراهم دائما يتلونون ويخفون غير ما يعلنون ليأكلوا على كل مائدة ، ويصيدوا من كل ماء ، ويغنموا فى كل جو ، ولكنهم مخدوعون من حيث يظنون أنهم خادعون ، كما سنرى فى الآية التالية :

(عمى البصيرة)

« الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون » .

العمه . هو عمى القلب والبصيرة .

وقد عرفنا أن الاستهزاء هو السخرية من الشيء . والاستخفاف به . واحتقاره : وأن المنافقين كانوا يلقون المؤمنين بوجه . فاذا لقوا اخوانهم من شياطين الانس كشفوا لهم القناع عن الوجه الحقيقى واظهروا لهم ماأضمروه للمؤمنين من السخرية والاستخفاف والاحتقار .

وفى هذه الآية اعلان من الله بأن جزاء استخفافهم واستهزائهم بالمؤمنين هو الاستهزاء بهم منه سبحانه ، وذلك بأن ينزلهم منازل الهوان والاحتقار فلا يكون لهم أثر أو خطر ، ويزيدهم عتوا وغلوا فى الطغيان . حتى تطمس بصائرهم . وتعمى قلوبهم . وتلتبس عليهم الطرق فلا يدرون أين يسيرون .

وليس أردأ من هذه الحال ، ولا أسوأ من هذا المآل .

وهكذا نرى جزاء استخفافهم واستهزائهم بالمؤمنين هوانا يلحقهم من الله ، وأمدادا لهم فى الطغيان وتجاوز الحد والقصد ، وقد سمى ذلك استهزاء من الله كما سمى جزاء السيئة سيئة على طريق المشاكلة ، وشتان بين الفعل والجزاء .

(تجارة خاسرة)

« أولئك الذين اشـــتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .

تقول ضل فلان منزله اذا غاب عنه . ولم يعرف الطريق اليه ومن ثم ترى أن الضلالة ضد الهداية . وقد عرفنا الهداية فيما قدمناه

والربح هو الزيادة التى يحصـــل عليها التاجر فوق رأس المال .

والتجارة صناعة التاجر ، وهى البيع والشراء لغرض الحصـول على ربح وزيادة فى المال ، فاذا خسر رأس ماله كان الفشل مطبقا عليه محدقا به ، وكان همه همين : هم انهيار آماله . وهم ضياع رأس ماله ..

وفى هذه الآية يشير الله سبحانه الى أن هؤلاء المنافقين الذين عرفنا بعض سماتهم وصفاتهم . اتخذوا من الكذب والخداع والرياء والدهاء والافساد فى الأرض ، وسائل لتحقيق ما يخفون من أطماع . فآثروا السعى فى الظلام على الظهور فى النور ، وكانت تجارتهم تقـوم على أن يستبدلوا الضلال الذى حذرهم الله غوائله ، بالهدى الذى يسر لهم وسائله .

ثم كانت خسارتهم من ناحيتين . ناحية خيبة الأمـــل فى تحقيـق الربح . وناحية الفشل فى صيانة رأس المال .

وما أسوأ ذلك المآل ، الذى يفقد فيه الانسان رشـــده ، ويشقى بالضلال .

مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون (١٧) صم بكم عمى فهم لا يرجعون (١٨) أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصـــابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين (١٩) يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا اظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ان الله على كل شىء قدير (٢٠) .

(قصة هؤلاء)

« مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » .

المثل : النظير . والشبيه . والقصة الغريبة يعقد بينها وبين غيرها مشابهة .

واستوقد النار .. أشعلها وبالغ فى اشعالها .

ذهب به .. أزاله وأخذه معه حتى لا يفلت منه ، وهو أبلغ من أذهبه فى معنى الازالة .

يمثل الله قصة هؤلاء الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، وآثروا النفاق والافساد فى الأرض ، والخداع ، والجرى وراء الأطماع بقصة فريق من الناس أشعلوا فى ظلام الليل نارا ليجدوا معها الضوء والدفء ويروا فى جوارها ما حولهم من مسالك وبقاع وأصقاع ، حتى يحسوا الامن والطمأنينة والسكينة ، فلما اشتعلت النار أطفأها الله وأذهب عنهم نور أبصارهم ، وتركهم يتخبطون فى ظلمات موحشة مخيفة ، لا يبصرون فيها شيئا .

فهؤلاء المنافقون قد يسرهم بعض مايصلون اليه من منافع ، ولكنهم سرعان ما تتبدد أحلامهم . وتتلاشى أوهامهم ، ويدركهم الألم بعد الجذل واليأس بعد الأمل .

(آفات الحواس)

« صم بكم عمى فهم لا يرجعون » .

الصمم : صلابة فى الشىء تنشأ من اكتناز أجزائه وكثافتها مع قوة تماسكها ، ومن ذلك قناة «رمح » صماء . أى صلبة قوية وحجر أصم . أى صلب قوى متماسك الأجزاء مصمت . وصمام القارورة «الزجاجة» سدادها المضغوط القوى الذى يوضع فى فمها ، وسمى من لا يسمع أصم لأن باطن أذنه مكتنز لا تجويف فيه يسمح للهواء وللموجات الصوتية بالوصول اليه .

والبكم .. الخرس .. والأبكم هو الأخرس الذى لا ينطق ، والأعمى هو الذى لايبصر .

هذه الآفات الثلاث . الصمم ، والبكم ، والعمى تفسد الاذن واللسان ، والعين . فتحول دون السمع ، والنطق ، والابصار .

وقد شبه الله هذا الصنف من الكافرين بفاقدى هذه الحواس لانهم سدواعن الحق مسامعهم ، ولم يحركوا به ألسنتهم ، وأبوا أن ينظروا ويعتبروا ، كأنهم صم ، بكم ، عمى ، فهم لا يرجعون الى الهدى الذى باعوه وضيعوه ، ولا عن الضلال الذى آثروه واختاروه ، بل حبسوا نفوسهم فى جوه المظلم ، وأغلقوا عليها نوافذ الحواس ، فلم ينفذ اليها بصيص من نور علم ، ولم يشرق عليها شعاع من ايمان .

(حياة هؤلاء ...)

« أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ، يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ان الله على كل شىء قدير »

الصيب . بتشديد الياء مكسورة المطر الغزير الكثير ...

والصاعقة . نار محرقة تصحبها قصفة رعد ، وشحنة كهربية لاتمر بشىء الا أتت عليه .

ان حياة هؤلاء المنافقين ـ على حرصهم عليها وتشبثهم بها ـ كلها قلق وأرق ، وظلام وآلام ، وهلع وفزع .

انهم كقوم أخذتهم السماء بمطر غزير ، وأطبق عليهم الغمام بظلام دامس ، تروعهم الرعود القاصفة ، وتفزعهم البروق الخاطفة ، وتشتعل أمامهم حرائق الصواعق ، فيسدون بأناملهم آذانهم ، ويخافون أن يدركهم الموت ، والله محيط بهم ، لا يفلت منه واحد منهم ، ولو شاء لعجل بفنائهم والقضاء عليهم .

انهم كلما لمع البرق التمسوا فى ضوئه طريقا الى النجاة أو المنفعة ، واذا انطفأ ضوؤه ـ وسرعان ما ينطفىء ـ وقفوا فى الظلام حيارى ،لايدرون أين يسيرون أو يفرون ، ولو شاء الله لعاقبهم على نفاقهم وكفرهم بازالة أسماعهم وأبصارهم ، لانهم عطلوها عن سماع آياته ، والنظر فى ملكوته.

انه قادر على كل شىء . لا يعجزه أى شىء .

(أين نحن من هؤلاء)

قد يسأل سائل فيقول : اذا كانت حياة الكافرين والمنافقين هى ما عرفنا من هذا التشبيه وتلك القصة ، فكيف نفسر تحول ميزان القوة الى جانبهم على نحو ما نشاهد ونكابد الآن ... ؟

والجواب عن ذلك أولا : أنهم مع ذلك فى شقاء دائم ، وبلاء لازم على الرغم من مظاهر الثراء والرخاء والقوة التى يلوحون بها .

أنهم يغرقون وتغرق معهم شعوبهم بين الحين والآخر فى بحار من الدماء ، وتقودهم المطامع الى معامع تشويهم وتفنيهم ، وهم من الحروب فى كروب متصلة . وخطوب متلاحقة ، ولعل ذلك بعض مايفهم من قوله تعالى « ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله .. »

وثانيا : أننا لسنا مؤمنين بالمعنى الصحيح الذى تدل عليه كلمة الايمان ، فان الايمان كما ذكرنا طريقه العلم ، وأثره العمـــل ، وثمـرته الخير والفوز والفلاح .

فأين نحن من العلم النافع ، والعمل الصالح ، والايمان القوى ؟

ومع ذلك ــ فقد لاحت تباشير صبح جديد . ووضعنا أقدامنا من جديد على طريق الخير والقوة ، « ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز » .

(فساد التوجيه)

وقد يقول قائل : « لماذا لم يؤمنوا وقد علموا · وبلغوا من العلم شأوا مكنهم من ركوب الماء والهواء · واكتشاف الكهربا · وتفجير الذرة وغزو الفضاء .. ؟

والجواب عن ذلك هو فساد التوجيه ، وسوء التربية ، والغرور الذى نفخ فيه الشيطان · حتى جعلهم يؤمنون بأنفسهم ، ويكفرون بمن خلقهـم ورزقهم ، وزودهم بالعقل ، وبما يتقلبون فيه من خيرات الارض وبركات السماء .

وقديما اغتر قارون بما آتاه الله وقال « انما أوتيته على علم عندى » فخسف الله به وبداره الارض « فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » ·

ان العلم خير دون شك ، وهو يهدى الى الخير والايمان اذا لم توجهه روح الشيطان لخدمة غرائز الطمع والجشع والانانية والغرور .

ان السيارة نافعة ممتعة ، ولكن اذا ملكها مفتون مستهتر لا ضمير له ، ثم أمن قبضة القانون لم يعبأ بمن يطحنهم فى الطريق تحت عجلاتها من الأطفال والنساء والضعفاء ، بل قد يتشهى ذلك ويتلهى بمناظر الدماء والأشلاء ·

فالشر فيه لا فى السيارة .

وكذلك العلم اذا صحبه فساد التوجيه .

(الطريق المفتوح)

مع ذلك لا يأس ولا تشاؤم ، بل الأمل الباسم ، والعمل المتصل للعيش الكريم ، والمستقبل السعيد .

لقد مرت على المسلمين فى المدينة فترة حالكة السواد . كان الخطر فيها يحدق بهم . ويكاد يطبق عليهم ، حتى « زاغت الابصار ، وبلغت القلوب الحناجر» وقال أحدهم : ما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح فنزل قوله تعالى « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » .

ثم كان لهم ما وعدهم الله به ، فخلفوا غيرهم فى السيادة والقيادة ومكن الله لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وبدل خوفهم أمنا فلما ضعف ايمانهم ، وفسد عملهم ، لانوا واستكانوا وهانوا . وسلبوا السيادة والثروة والأمن .

غير أن تعليق تحقيق هذا الوعد على الايمان المستفاد من كلمة « آمنوا » فى الآية ، وعلى العمل الصالح المستفاد من جملة « وعملوا الصالحات » يفيد أن القاعدة مطردة ، وأن الطريق الى المجد والرخاء والأمن هو الايمان القوى والعمل الصالح .. وهو طريق لا يزال ممهدا معبدا مفتوحا .

يأيها الناس اعبـــدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون (٢١) الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمـرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون (٢٢) وان كنتم فى ريب ممـــا نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله أن كنتم صادقين (٢٣) فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقـوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للـــكافرين (٢٤) وبشر الذين آمنوا وعملوا الصـــالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الانهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون (٢٥) ..

(عود على بدء)

انتهى الحديث عن الناس بأقسامهم الثلاثة .

الذين أنعم الله عليهم فآمنوا واتقوا ، وسلكوا طريق الهدى والفلاح .

والذين غضب الله عليهم . فكفروا وجهروا بالكفر . وسلكواطريق الغى والعناد .

والذين ضلوا وزلوا فأسروا الكفر ، وجهروا بالايمان ، وعاشوا مذبذبين بين أولئك وهؤلاء ،يدورون حول مطامعهم ومنافعهم ، ويشترون الضلالة بالهدى ، فتضيع أحلامهم فى الربح ، وتتبدد أوهامهم فى النجاح، ثم يخرجون من تجارتهم بانهيار الآمال ، وضياع رأس المال .

انتهى الحديث عن هؤلاء بهذه الملامح التى تحدد صورهم ، ثم عاد الى حيث بدأت سورة الفاتحة ، الى الدعوة الى عبادة الله والثناء عليه ، وتمجيده وتوحيده « يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون » .

والمتأمل فى قوله « لعلكم تتقون » يقع فى باله أن هذا الخطاب لغير المتقين من الكافرين والمنافقين ، ولكن لا بأس أن يراد به الناس جميعا فان الايمان يزيد وينقص ، والتقوى تتفاوت ، وعلى هذا كان تأويل « يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل » .

(الناس)

يقولون أن كلمة « الناس » أصلها « الاناس » وقد حذفت الهمزة تخفيفا ، كما حذفت من كلمة « ناس » ولكن حذفها مع الالف واللام يكاد يكون لازما . فلا تقول « الاناس » ولك أن تقول « أناس »

وقالوا أن كلمة « أناس » مأخوذة من الأنس .. تقول أنسته أنسا اذا سكن اليه قلبكَ ، واطمأنت اليه نفسك ، ومن ذلك « الأنيس » الذى تجد فى صحبته ارتياح فكر ، وانشراح صدر .

وتقول « آنسته » بمعنى أبصرته ، وقد جاء على لسان موسى عليه السلام « قال لاهله امكثوا انى آنست نارا » وهذا يفسر السبب فى

تسمية بنى آدم « انســـا » فانهم حلق يظهر ويؤنس · ويبصر ، عكس الجن فانهم خلق لا تقع عليهم الأعين « أنه يراكم هـــو وقبيله من حيث لا ترونهم » .

ومن ذلك ترى أن الشـــأن فى الناس أن تكون بينهـم مجانسـة ومؤانسة وتعارف وتآلف ، فاذا انقلبت هذه المعانى الى تناكر وتنافر ، وتشاحن وتطاحن ، فاذكر الذئاب بخير وقل مع القائل :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى وصوت انسان فكدت أطير

(الخلق)

لتقريب معنى كلمة « الخلق » أعرض عليك هذه الصورة :

مهندس وضـع فى ذهنه « تصميما » مرسوما لمنزل صـغير تحيط به حديقة أنيقة .

انه قدر مســاحته ، وموقعـه ، وارتفاعه ، ونوافـذه ، ومرافقـه ثم انتقل من طور التقدير الى طور التنفيذ . فكان المنزل كما تصـــور وقدر فى نظامه وانسجامه ، ورسمه وحجمه ، وموقعه .

هذه العملية اذا تصـــورتها فهمت الى حد ما معنى « الخلق » بالنسبة الى الله تعالى ، فكل شىء فى هذا الكون قدره الله ، وأوجده وفق تقديره ، وطبق حكمته . وهذا بعض ما يفهم من قوله تعالى : « انا كل شىء خلقناه بقدر » .

فليس ثمة شىء وجد مصادفة أو عبثا ، وهذا ما يرشد اليه قوله « وما خلقنا الســموات والارض وما بينهمـــا لاعبين . ما خلقناهما الا بالحق .. »

وليس ثمة شىء يخرج من قبضته ·· أو يند عن ارادته «فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء واليه ترجعون · »

بهذا نستطيع أن نفهم معنى أن الله هو الخالق . وأن ما ســواه مخلوق كما نستطيع أن نفهم قول العلماء فى تعريف الخلق : انه ايجـاد الشىء على تقدير واستواء .

(لماذا نعبد الله ... ؟)

« يأيها النـــاس اعبـدوا ربكم الذى خلقـكم والذين من قبلـكم لعلكم تتقون » .

عرفنا فى تفسـير « آياك نعبد » أن العبادة هى نهاية الخضـوع مع الطمع فى الثواب · والخـوف من العقاب ، فهل تنحصر بواعثها فى هذين الامرين . وهما الطمع فى الثواب والخوف من العقاب ... ؟

كلا . فان لها بواعث أخرى كثيرة ، ولـــكنها مع تنوعها وتفرعها تلتقى فى أصل واحد . هو الشعور بعظمة الله ، وآثار رحمته . أو بعبارة قصيرة .. هو الشكر .

تأمل بداية الفاتحة الى جملة « اياك نعبد » تجد أن الحمد هو رأس الشكر ـ هو الوازع الدافع على العبادة ·

وتأمل هذه الآية تجد العبادة مقرونة بأسبابها وهى أن الله ربنا ، ومالك أمرنا ، ومصلح شئوننا ، وســيدنا الذى لا ينازع فى الســيادة والعبادة ، وخالقنا الذى أوجدنا وفق تقديره ، وأودع فينــا الحيــاة . وزودنا بما يكملها ويجملها . وهو الذى خلق من قبلنا من الآباء والأمهات والأجداد الذين انحدرنا من أصلابهم · فهو خالق السبب والمسبب ، واليه وحده يرجع الشكر · لأنه أوجد كل من فى الوجود ·

وهكذا نجد الشكر روح العبادة ، ونجد العبادة التى تقوم عليه هى التى يرجى منها التقوى ، وقد عرفنا المتقين وعرفنا مصيرهم من قول الله فيهم : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » ·

(منطق)

« الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من الســماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون »·

الند كالضد وجمعه أنداد ، وهم من تجمعهم مماثلة ومشاكلة وتكون بينهم المباعدة والعناد ·

وهذه الآية متصلة بالآية السابقة فى التذكير بالأسباب التى تدعو الى عبادة الله وحده ·

فهو ـ جل شأنه ـ جعل الأرض كالفراش ، نطمئن عليها ، ونسعى فى جوانبها ، ونمشى فى مناكبها ؛ ونراها بأعيننا كأنها بساط ممدود وأن كانت كروية ، مذللة للســائرين والعابرين « هو الذى جعــل لكــم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » ·

وهو جل شأنه ـ أنزل من السماء الماء الذى تقوم عليه الحياة وحياة الانسان والحيوان ، وأنبت بالماء الشجر وما يحمل من زهر وثمر ، وجعل من ثمرات النبات رزقا لنا · نجد فيه مادة غذائنا وعناصر بقائنا ونمائنا ·

هذه النعم العامة الكبرى هى من الله وحده دون منازع أو مدافع ، وشكرها يقتضى عبادته وحده ، فليس من المنطق الذى يعقل ويقبل أن يجعل الناس له أضدادا · أو أندادا يشاركونه فى العبادة · أو يزاحمونه فى السيادة ·

فلا تجعلوا لله أمثالا تخضعون لها كما تخضعون له · وأنتم بما فيكم من عقل أهل علم ونظر واستدلال ·

(صورتان)

الصورة الأولى فى خلق الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم من ذكر وأنثى ، بماء ينصب من أصلاب الآباء فى أرحام الأمهات ، وما يعقب ذلك من أطوار الخلق . وأسرار التكوين ، ثم ما يكون بعد ذلك من نجل ونسل .

وقد بينت آية « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم » انه تعالى خالق الأسباب ممثلة فى الآباء والأمهات . وخالق المسببات ممثلة فى الأبناء والبنات ، وليس له فى ذلك شريك ، فمن حقه وحده أن يعبد ويحمد .

والصورة الثانية تتمثل فى الماء ينصب من السماء ، فتهتز به الأرض وتربو بما تحمل ، ثم يخرج من بطونها النبات وما يحمل من ثمرات ، فنجد فيه رزقنا ، ونجد فى الأرض التى تقلنا ، والسماء التى تظلنا بيتا واسعا . أرضه ممهدة معبدة كأنها فراش ، وسقفه سماء منصوبة ، كأنها قبة مضروبة تتألق فيها المصابيح الالهية ، وتتدفق منها الأمطار الغزيرة ، فنجد فيها أسباب حياتنا وبقائنا وارتقائنا .

وقد بينت آية « الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » أنه وحده الصانع الحكيم الرازق ، وليس له فى ذلك شريك . فمن حقه وحده أن يعبد ويحمد .

هاتان الصورتان المتناسبتان المتقاربتان يستشف منهما الناظر النتيجة قبل التصريح بها ، وهى قوله تعالى « فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون »

(سباق .. ولحاق)

قلنا فى تفسير « الرحمن » أنه المنعم بالنعم الجليلة الكبرى التى لا يستطيع أن يوجدها غيره ، أو يجود بها سواه .

ونلاحظ فى الآيتين السابقتين أنه تعالى ذكر من أسباب توحيده فى العبادة ، وتفرده بها . أنه خلقنا وخلق من قبلنا . وذلك نعمة عامة ، وأنه جعل لنا الأرض كالفراش المبسوط . والسماء كالسقف المرفوع ، وأنه أنزل الماء الصالح للحياة من السماء ، وأخرج بهذا الماء رزقنا من الثمرات .. وكل هذه نعم عامة لا ينكر جاحد أو معاند أنه ـ جل شأنه ـ هو الذى أوجدها ، وجاء بها . فهى مما يدخل فى مفهوم كلمة «الرحمن».

ثم نلاحظ بعد ذلك . أنه بعد ذلك مباشرة تحدث عن القرآن ، وتحدى المرتابين فيه أن يأتوا بسورة من مثله . فقال « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » .

ما دلالة ذلك السباق واللحاق . وما معناه ومغزاه .. ؟

دلالته أن القرآن كذلك نعمة عامة للناس جميعا ، ورحمة شاملة للخلق أجمعين ، وأنه من النعم التي لا يستطيعها غيره ـ تعالى ـ ولايجود بها سواه ، كنعمة الخلق ، والرزق والماء ، والسماء والأرض والنظام الذى يمسك السماء والأرض ، ويعصمهما من الانحلال والزوال .

(ظاهرة عامة)

ثم يقتصر عرض القرآن فى سياق النعم العامة الكبرى على هذا الموضع من هذه السورة ، بل ذلك ظاهرة عامة يجدها القراء بالاستقراء والاستقصاء .

وأظهر شاهد على ذلك سورة الرحمن . فان أول ما ذكره الله فيها من جلائل نعمه ، ودلائل كرمه ، تعليم القرآن ، ثم أردفه فى الذكر بنعمة خلق الانسان ؛ والميزة العظمى التى انفرد بها عن سائر أنواع الحيوان . وهى ميزة الفكر والبيان ، ثم ذكر الشمس والقمر . والنجم والشجر . والسماء . والأرض ـ كما ترى فى قوله تعالى : « الرحمن علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان ؛ والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان .. » ثم ..« والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام » .

هذه النعم الكبرى هى التفسير ـ كما ذكرنا وكررنا ـ لكلمة الرحمن .

وهذا القرآن هو الذروة العالية والقمة العظمى من هذه النعم .

ولو أن الناس فهموه كما يجب أن يفهم ، وعلموه كما يجب أن يعلم ، لاقتنعوا به جميعا وانتفعوا به جميعا .

ولكنها الجهالة والضلالة والأحقاد والأطماع .

(النداء ..)

معنى النداء فى الأصل .. الدعاء .

فاذا قلت : « يا محمد اجتهد » فقد دعوته الى الاجتهاد .

واذا كان من تريدنداءه بعيدا عنك دعوته بكلمة « يا » وذكرت اسمه ليعرف أنك تعنيه وتقصده .

أما اذا كان قريبا منك فانك تدعوه بكلمة « أى » أو بالهمزة أو بدونهما فتقول : أى محمد ، أو أمحمد ، أو محمد .

لكن قد ينادى القريب بنداء البعيد . فيدعى بكلمة « يا » لعدة اعتبارات .

فمثلا اذا كان من تناديه عظيما ، ورأيت البون بينكما واسعا نزلته ـ على قربة منك ـ منزلة البعيد عنك ، ومن ذلك قولك : يارب. وهو أقرب اليك من حبل الوريد .

واذا كان رجلا خاملا ، وشعرت بتفاوت يرفعك عنه ويضعه دونك أو كان غافلا ـ حيث يجب الانتباه ـ نزلته كذلك على قربه منك ـ منزلة البعيد عنك وناديته بكلمة « يا » .

كذلك اذا كان الشيء ، الذى تطلبه ممن تناديه عظيما جسيما يستحق مزيدا من العناية والاهتمام ، فانك تنزل المخاطب به ـ على قربه منك ـ منزلة البعيد عنك وتناديه كذلك بكلمة « يا » .

هذا الاعتبار الاخير هو السر فى كثرة النداء بكلمة « يا » فى القرآن فان المأمور به بعد النداء بها أمور عظام تستحق العناية والاهتمام ، مثل العبادة فى « يأيها الناس اعبدوا ربكم » والجهاد فى « ياأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين » .

أما كلمة أى فى « يأيها » فهى وصلة لنداء « الناس » وكل اسم فيه أل .

وأما الهاء فهى لتأكيد التنبيه الذى يفهم من كلمة « يا » فلاحظ ذلك فيما ترى من أساليب النداء فى القرآن .

(لمن هذا النداء .. ؟)

يلاحظ أن النداء فى القرآن اذا كان بجملة « يأيها الذين آمنوا » كان مايعقبه من أمر دعوة الى أمور تعد بالنسبة للايمان فرعية ، أو كمالية مثل : « يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم » « يأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى » .

ويلاحظ مع ذلك أن النداء اذا كان بجملة « يأيها الناس » كان ما يعقبه من أمر دعوة الى أمور تعد بالنسبة للايمان ضرورية أو عناصر أصلية مثل : « يأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم » « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » .

لعل هذا يفسر ماقيل من أن النداء اذا كان للناس كان المراد به كفار مكة وكان دليلا على أن الآية مكية .

ولكن جمهرة المفسرين على تعميم النداء للكافرين والمؤمنين فكلهم ناس يخاطبون بجملة « يأيها الناس » والقرآن عام خالد . فدعاؤه ونداؤه للناس أجمعين . للمؤمن والكافر ، والبر والفاجر . من وقت نزوله حتى تقوم الساعة وتبدل الارض غير الارض والسموات ..

فدعوة المؤمنين الى عبادة الله يقصد بها زيادة العبادة . ودعوة

الكافرين الى عبادة الله ، تتضمن الدعوة الى الايمان حتى تصح العبادة كالدعوة الى الصلاة فانها تتضمن الدعوة الى الوضوء حتى تصح الصلاة .

(آية الآيات)

« وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله . . »

ذكرنا أن القرآن كثيرا مايذكر مقرونا بالنعم العامة الكبرى التى لايشك عاقل فى أنها من الله ، كايجاد أنواع الخلق . وتيسير أسباب الرزق . وتسخير الارض بما فيها وبما يحيط بها لمصلحة الانسان .

لكن . . . لماذا ذكر هنا ، مقرونا بالتحدى دون غيره من النعم التى سبق الحديث عنها . . . ؟

لم أفرده الله بحديث أطول ، وتحدى المرتابين فيه بل المنكرين له أن يأتوا بسورة من كلام يماثله ان كان ثمة كلام يماثله . . . ؟

الجواب أنه ظهر على لسان بشر ليكون برهان صدق على أن رسالته حق ، وأنه رسول الله ، ومن هنا كان الاضطراب والارتياب ، أو الكبر ثم الكفر . . .

ان كل المعجزات التى ظهرت على أيدى الرسل من عمل الله ، وليس لواحد منهم فضل فيها ، وانما حظهم منها هو الانتفاع بها فى تأييد دعوتهم وتأكيد رسالتهم ، اذ أنها أدلة صادقة ناطقة بأن هؤلاء الذين ظهرت على أيديهم مبعوثون من الله لهداية الناس ، صادقون فى كل مايبلغونه عنه سبحانه .

ومن هنا كان التعبير بكلمة « عبدنا » عن محمد صلى الله عليه وسلم يشعر بأن عمله فى القرآن لايتعدى امتثال الامر والتبليغ ، كما يوحى بكفر من ينسب القرآن اليه . وسترى ذلك مشفوعا بما يؤكده ويؤيده .

(المعجزة والتوحيد)

يقول فضيلة المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز ، أن تكذيب الرسول هو ــ عند التحقيق ــ شرك بالله ، لانه لايكذب الرسول الا من أنكر معجزاته ، ولامعنى لانكار معجزاته الا انكار كونها من عند الله وكونها فعلا من أفعال الله . وزعم أنها من عمل مدعى النبوة . . .

ثم يقول : ومن زعم هذا فقد جعل من دون الله من يقدر على أن يخلق مالا يخلقه الا الله . وهذا شرك فى الخلق . . ثم ينتهى من ذلك الى أن عقيدة الوحدانية مستلزمة لعقيدة الرسالة ، بحيث لايجتمع

التوحيد مع الجحد بالرسول فى قلب واحد الا مع الغفلة عما فى ذلك من تناف وتناقض .. »

بهذا يظهر لنا من ناحية أخرى مدى مابين الحديث عن عبادة الله وتوحيده فيها . والحديث عن القرآن من تناسب وتقارب . وانسجام والتئام .

بل اننا اذا تذكرنا آخر الآية السابقة « فلا تجعلوا لله أندادا » وأول هذه الآية التى تليها « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا » وقع فى أذهاننا أن من ينسب القرآن لمحمد عليه السلام كمن يجعل لله أندادا ، وهو ـ سبحانه ـ ليس له ند أو ضد .

بل لقد ذكر ذلك تلميحا فى قوله تعالى « فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة » ثم تصريحا عقب ذلك فى قوله « أعدت للكافرين » .

وبهذا تتضافر النصوص والادلة على أن من ينسب القرآن لغير الله كافر وان زعم أنه مؤمن بالله .

(شبه شبهة)

من الاوهام التى تعلقت بها أحلام الكفار . وحسبوها من بواعث ارتيابهم فى القرآن أنه نزل كالنجوم . نجما . نجما . وآيات ثم آيات . وسورة غب سورة ، على حسب الحوادث . وبمقتضى الاحوال والظروف المختلفة ، وفى أزمنة متباعدة ، فقالوا مايحكيه القرآن عنهم « لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة » وحسبوا أن هذا الكلام الذى لايدانيه كلام يشبه كلام الناس ، لانهم يؤلفون كتبهم ، ويلقون خطبهم ، وينظمون شعرهم فى أوقات مختلفة . ويتأثرون فى ذلك بما تمليه الظروف والاحوال والمناسبات .

هذا هو سر التعبير بكلمة « نزلنا » بتشديد الزاى بدل « أنزلنا » فى الآية الكريمة « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » فان الاولى تدل على نزوله مفرقا ، والثانية تدل على نزوله جملة فقال الله لهم ان ارتبتم فى القرآن لذلك ، أى لنزوله مفرقا ، أو لغير ذلك . وشككتم فى أنه من عند الله . فتضامنوا وتعاونوا على الاتيان بأية سورة طويلة أو قصيرة من كلام يماثل هذا الكلام ، واستعينوا بمن يحضرونكم أو ينصرونكم أو يشهدون لكم من غير الله .

والسورة طائفة من القرآن مترجمة بعنوان ، وأقل سورة منه ثلاث آيات ، وقد سميت هذه التسمية تشبيها لها بسورة المدينة ، لانها محددة تضم فنونا من العلم وألوانا من الفوائد كما يضم السور المدنية بما فيها من مختلف الناس والاجناس .

(نجوم متألقة)

قد يتساءل قارىء فيقول : اذا كانت كلمة « نزلنا » بتشديد الزاى فى الآية السابقة وغيرها تفيد أن القرآن كان ينزل قطعا متألقة. ونجوما متفرقة ، على حسب الوقائع المختلفة ، وفى الامكنة والأزمنة المختلفة ، فكيف نفسر كلمة « أنزلنا » فى قوله تعالى « انا أنزلناه فى ليلة القدر » وقوله « انا أنزلناه فى ليلة مباركة .. » ؟

وجواب ذلك كما يقول المفسرون أنه أنزل أولا من اللوح المحفوظ الى سماء الدنيا جملة واحدة ، ثم نزل به جبريل نجوما متفرقة بعد ذلك على النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد يكون خيرا من هذا الجواب ماقيل من أن « أنزلناه » فى هاتين الآيتين بمعنى بدأنا انزاله فى ليلة القدر . وفى ليلة مباركة .

أما اللوح المحفوظ . وكيف أنزل القرآن منه ، وأين مكانه ، وما سماء هذه الدنيا ، وما سماء غيرها .. ؟ فعلم ذلك عند الله ، ولعل هذه الاشياء من أمور الغيب التى مدح المتقون على التصديق بها لمجرد أن الله أو رسوله أخبر عنها .

على اية حال .. لقد تحدى الله المرتابين فى القرآن أن يأتوا بما يضاهى أقصر سورة منه « وهى ثلاث آيات ، وقبل ذلك تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وقبل ذلك تحداهم وتحدى الجن والانس معهم أن يتعاونوا على أن يأتوا بمثله ، وأخبر عن عجزهم قبل ثبوت عجزهم عن الاتيان بسورة من مثله ثم عجزوا .. وسيظل عجزهم وعجز غيرهم شاهد صدق على أنه من عند الله .

(سبب العجز)

وقد يقول قائل ، لماذا عجز العرب عن أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله ، وقد كانت صناعتهم الباهرة وبضاعتهم الفاخرة . هى البلاغة فى القول . والاجادة فى الكلام .

والجواب أن سر العجز هو هذا ..

هو خبرتهم فى هذا الفن . وقدرتهم عليه ، ومهارتهم فيه ، فانها كشفت لهم عما فى القرآن من آفاق رائعة . لاتحملهم أجنحتهم اليها ، وآيات باهرة لايستطيعون أن يفتحوا أعينهم عليها ، وحقائق ظاهرة لايمكن أن يحجب نورها الفامر بما يثار من غبار الاكاذيب وضباب الاضاليل .

ومن ثم أيقنوا — عن فهم وعلم — أنهم لن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، ومنعهم الخوف أن يفصحوا عن المعارضة فيفضحوا بين الناس .

فاذا سمعتم انسانا يزعم أنه يستطيع الاتيان بسورة مثل سورة فى القرآن فداؤه فى جهله أو فى عقله . أو فى اليد الخفية التى تحركه وتروج لدجله بين الجهلة والمغفلين .

ان القرآن ليس معجزة للجهلة والاغبياء ، بل انه ليس من المعجزات الحسية التى يقاد بها من لاينقادون بعقولهم وقلوبهم الى الحق والخير .

انه معجزة أدبية علمية ، اصلاحية ، لم يستطع العقل الانسانى ولن يستطيع مهما بلغ به تقدمه وتفهمه لحقائق الكون والحياة أن ينقض منه مثقال ذرة .

ولايزال التحدى به قائما دائما الى أن تقوم الساعة « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله .. الخ » .

(وجوه الاعجاز)

أما ان القرآن معجزة لغوية أدبية ، فيكفى فى التدليل على ذلك أن يخشع له ويخضع أمام نظمه أساطين العرب وأعلام الادب ، فى عصر بلغت فيه اللغة شأوا لم تسبق اليه ، ولم تلحق به فى أى زمان أو مكان .

وهو لايزال ـ وسيظل ـ كما أنزله الله ، يتحدى أى ناقد أو جاحد أن ينتزع من بنائه كلمة ، أو يضيف الى بنائه كلمة ، أو يبدل فيه كلمة بكلمة ، ثم لايكون عمله نشازا فى اللحن ، وشذوذا عن النظام ، وخللا يدل على جهل العقل ، وفساد الذوق .

وأما أنه معجزة علمية فحسبنا فى التدليل عليها أن الحقائق العلمية التى تطالعنا فى كل حين بوجوه مسفرة تزيح أستاره ، وتكشف أسراره ، وتفجر أنواره ، وترينا من بدائعه وروائعه مالم نكن نعرف ..

انه من عمل الحكيم العليم الذى يعلم السر فى السموات والارض ، ويقول وقوله الحق « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ولهذا لم تتعارض معه حقيقة علمية ، وبقى صامدا خالدا يتحدى الجن والانس أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله .

وأما أنه معجزة اصلاحية . فيكفى فى التدليل عليها أن تاريخ البشرية لم يعرف كتابا ألف بين أمة مشتتة . وجمعها على أسباب القوة ومعانى الخير ، وجعلها خير أمة فى أسرع وقت عرف فى تاريخ أمة كما فعل هذا القرآن الذى يقول الله فيه « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » .

استعلاء واستخذاء ..

« .. وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين » .

لم يقتصر التحدى بأقصر سورة من القرآن على من يتظاهرون بالشك فيه أو ينكرونه ، وانما تجاوزهم الى غيرهم ممن يحضرونهم ، أو ينصرونهم . أو يشهدون لهم . أو يعتبرون أئمة عندهم ..

فان كلمة الشهيد معناها الحاضر ، أو الناصر ، أو الذى يؤدى الشهادة . ويحكى ماحضره ورآه وسمعه . أو الامام لانه يحضر المحافل ويشهد النوادى والمجتمعات .

وقد سمى من يقتل فى سبيل الله « شهيدا » لذلك ، أو لان الملائكة تشهده ـ كما قيل ـ وقد غلب اطلاق هذا الاسم عليه حتى كاد يصبح حقيقة عرفية فيه ، وهو على أية حال ليس من هؤلاء الشهداء .

وسواء كان الحاضر مع هؤلاء المرتابين ظاهرا كالانس أو مختفيا كالجن . فان التحدى بدعوتهم الى النصرة والمؤازرة يشملهم جميعا ، حتى الاصنام التى كانوا يعبدونها ، ويزعمون أنها تقربهم الى الله ، وتشهد لهم عنده داخلة هى الاخرى فى الشهداء ، وهذا ينطوى على تهكم بهم . وسخرية منهم ، فانها لاتبصر ولاتسمع ، ولا تضر ولا تنفع .

ومعنى « ان كنتم صادقين » هو أنكم لستم صادقين فى ارتيابكم ولا فى دعواكم ان هذا القرآن كلام انسان ، والا فاجمعوا أمركم وتقدموا الى الميدان ، لا بكلام مثله ، بل بسورة من مثله .

وهكذا نجد استعلاء التحدى بالحق ، واستخذاء التردى فى الباطل .

(دلالة هذا التحدى)

« فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » .

كلمة «لن » تدل على نفى حصول العمل فى المستقبل .

والوقود بفتح الواو : هو ما يرتفع به اللهب ، وتندلع به ألسنة النار .

ومعنى الآية ـ والله أعلم ـ فان لم تأتوا بسورة من مثل القرآن أو من انسان مثل عبدنا محمد (عليه السلام) ، ولن تأتوا مهما تضامنتم وتعاونتم بسورة من مثله ، فقد حق عليكم أن تؤمنوا بأنه من عندنا ، وأننا نزلناه على عبدنا ، فلا تكفروا وصونوا أنفسكم من عذاب النار التى سمعتم عنها ، وعرفتم أن حطبها الذى يرتفع به لهبها ، هو أجسام

الكفار وأجرام الاحجار ، فقد هيئت وأعدت للكافرين . فبادروا الى الايمان قبل فوات الاوان .

وقد استخلص العلماء من هاتين الآيتين ثلاثة أدلة على صحة النبوة :

أولا ـ التحدى والاستفزاز والتحريض على بذل الجهد فى المعارضة ثم عدم تصديهم مع كثرتهم وشهرتهم بالفصاحة وحرصهم على المشادة والمضادة .

ثانيا ـ الاخبار عن الغيب بقوله تعالى « ولن تفعلوا » فانهم لم يفعلوا ولو فعلوا لظهر واشتهر ، لان الطاعنين فى القرآن كانوا ـ ولايزالون ـ أكثر من المدافعين عنه .

ثالثا ـ لو كان ثمة شك فى الامر ، مادعاهم الى المعارضة مخافة أن يظهر معارض مناهض . يدحض حجته ويبطل دليله .

بذلك وبألف دليل ودليل وراء ذلك ثبت أن القرآن حق ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء بالحق ، وثبت على الحق ، ودعا الى الحق ، وصدق الله اذ يقول « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا » واذ يقول فى أول هذه السورة ، « ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين » .

(الحاجة الى هداية الرسل)

حاجة العالم الى هداية الرسل كحاجة الانسان الى عقله وقلبه فأنا وأنت وهو . وكل فرد بازاء فرد فى مجتمع ، وكل مجتمع بازاء مجتمع فى أمة ، وكل أمة بازاء أمة فى هذا العالم تحكمنا غرائز فردية وجماعية لاتحصى .

فمن أثرة جائعة دائما ، طامعة دائما ، لا تقنع ولا تشبع الى حب استعلاء وكبرياء يقوم على ازدراء أقدار الضعفاء واستذلالهم واحتلال أرضهم ، الى حرص على البقاء يثير التدافع والتنازع ، ويوقد نار الحروب بين الشعوب .. الى آخر ماركب فينا من ميول وشهوات تدفعنا الى التماس مايشبعها وينفعها . ولا من طريق الاثم والظلم والعدوان على الآخرين .

هذه الغرائز لايكفى العقل وحده لصدها . وردها الى الحد الذى يرتفع فيه الجور على الغير ، بل ان هذه الغرائز قد تحكم العقل وتستخدمه سلاحا لهتك الحرمات . وسفك الدماء .

ولو أن عاقلا فاضلا . أو جماعة من العقلاء الفضلاء استوحوا حاجة المجتمع الى العدل . فوضعوا قوانين تمنع الطامع أن يجمح ، والكادح أن يضيع ، والمجرم أن يجرم ، والحاكم أن يظلم ، لكان الخضوع لها فى منطق هؤلاء المنحرفين ـ وما أكثرهم ـ خضوعا لقوة مماثلة أو

معادلة ، وغـرما لايقبلونه الا مرغمين عليه . كارهين له ، فاذا حـانت الفرصة للانتفاض والانتقاض ـ وكثيرا ما تحين ـ تمردوا واستأسدوا وانطلقوا بكل قـواهم يعصفون بكل القيم والمثـل ، ويـروعون الآمنين المطمئنين ..

لهذا كانت معجـزة الأنبياء تذكيرا لهـؤلاء بالقوة التى يتسـاوى الجميع فى العجز عنها .

وكانت شرائع الانبياء من عمل هذه القوة التى تحكم ولاتظلم .

وكان ارسال الرسل بهذه الشرائع وارسال محمد عليه الصـلاة والسلام بالاسلام وهو الدين العام ، رحمة عامة . ونعمة تامة للنـاس أجمعين .

(البشر .. والتبشير)

البشر بكسر الباء وسكون الشين هو طلاقة الوجه بسبب سرور . تنبسط به الاسارير ، وتشرق به البشرة « بفتح الشين والباء » وهى ظاهر الجلد والاديم .

والاستبشار هو السرور من خير يتطلع اليـه الانسان . ويتوقع حصوله ومن ثم كان البشير والمبشر هو من يحمل البشارة أو البشرى. وهى الخبر الذى يظهر السرور على وجه من يسمعه ويتلقاه .

لكن .. قد يقال : ان التبشير كما استعمل فى الخبر السار استعمل فى الخبر المؤلم . مثل قوله تعالى « فبشرهم بعذاب أليم » .

وقد أجيب عن ذلك بأن هذا الاستعمال أريد به التهكم والاستهزاء لكى يزيد الفيظ والالم ، كما يقول الرجل لعدوه أبشر بفشلك وضياع مالك ، فقوله تعالى : بعـذاب أليم يدل على أن التبشير لم يـرد منـه حقيقة معناه .

أما التبشير الذى عرفه الشرق أخيرا . ورأى فيه ظلالا تابعـة للنفوذ الاجنبى ، وفلولا خاضعة للتوجيه الاستعمارى ، وتيارات خفيـة تحمل عوامل التحلل والتبذل وهدم القومية والكيان الاسلامى ، فليس من هذا القبيل أو ذاك .

وانما سمى تبشير لغير هذا وذاك .

للتعمية ، والتغطية ، وخداع الاغرار عن مطامع الاستعمار .

واقرءوا تاريخه ، وأعمـاله لتروا كيف كان تغـريرا وتحذيرا . وخداعا للشعوب .

(الترغيب · والترهيب)

« وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الانهار » ..

بعد أن أنذر الله الكافرين . وحذرهم المصير الرهيب الذى ينتظرهم اذا أصروا على الكفر ، بشر المؤمنين بالمصير الحبيب ليثير رغبتهم فيه وشوقهم اليه .

لقد وصف مصير الكافرين فكان الوصف ـ على ايجازه ـ مهيبا رهيبا تقشعر له الابدان ، وتنخلع له القلوب ، وحسبك أن تتصور نارا يرتفع لهبها بوقود من أجسامهم . ومن حجارة أصنامهم . وتندلع ألسنتها باشتعال هذه الاجسام والاحجار فيها ، لتدرك أى نار هذه النار ، وأى مصير هذا الذى أعد للكفار .

ثم ذكر مع هذه الصورة الرهيبة صورة أخرى حبيبة يتمثل فيها مصير الذين آمنو وعملوا الصالحات .

انها بساتين كثيفة الشجر ، كثيرة الثمر ، وارفة الظلال ، ناضرة الجمال ، تجرى من تحتها الانهار ، ينعمون فيها بكل ما يشتهون . ويتمتعون بثمرات تتشابه صورها واشكالها ، ويختلف مذاقها وطعمها ، وبأزواج يزينهن الصفاء والنقاء ، ولا يشينهن قذر أو دنس ، ثم لا يشعرون بالخوف من زوال هذه النعم لانهم خالدون فى دار البقاء والخلود .

وهكذا نجد اقتران الترغيب بالترهيب ـ وهو ظاهرة عامة فى القرآن ـ كما يقول الزمخشرى للتنشيط الى اكتساب مايزلف . والتثبيط عن اقتراف مايتلف .

(من المبشر ... ؟)

من هذا الذى خاطبه الله وطالبه فى هذه الآية بأن يبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الانهار .. ؟

ان المخاطب بقوله « وبشر » ، المطالب بأن يذيع هذه البشارة السارة ويملأ بها صدور المؤمنين أملا وجذلا .. يحتمل أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى «يأيها النبى انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا » ، ويحتمل أن يكون كل من يفهم الخطاب ويستطيع أن يذيع هذا النبأ السار .

ذلك لان المبشر به وهو « جنات » بلغ من العظم ، وكثرة النعم ، وجمال الحياة فيه بحيث يستحق أن يبشر به كل من يستطيع أن يسمع خبره ، ويرفع الى الاسماع بشراه .

واستعمال خطاب الواحد المعين فى غير الواحد المعين لهذه الحكمة كثير .

يقول صلى الله عليه وسلم « بشر المشائين الى المساجد فى الظلام بالنور التام يوم القيامة » ولم يأمر ـ عليه السلام ـ شخصا معينا بأن يبشر وانما أمر به كل من يستطيع أن يبشر .

ويقول الشاعر :

اذا أنت أكرمت الكريم ملكته وان أنت أكرمت اللئيم تمردا

ولم يخاطب شخصا معينا بذلك ، انما خاطب كل من يفهم الخطاب وذكر قاعدة يراها عامة مطردة فى معاملة اللئيم والكريم .

(الصالحات)

اذا تذكرت ماقلناه فى الصلاح والفساد عند الحديث عن المنافقين أمكنك أن تفسر الصالحات التفسير الذى يقبله العقل ، ويرضاه الدين ..

فالصالحات هى الحلال أو الاعمال التى تعود على الفرد وعلى الجماعة بالخير المشترك والنفع العام .

والموازين التى توزن بها الاعمال ويعرف بها خيرها وشرها هى العقل وكتاب الله ، وسنة رسوله . فما استقام منها فى نظر العقل ، ووافق الكتاب والسنة كان صالحا ، وما اختلف أو انحرف عن منطق هذه الموازين كان فاسدا .

وكلمة الصالحات من الصفات التى غلب استعمالها دون اقترانها بموصوفاتها فصارت كأسماء الذوات . وجرت مجراها ، ومثلها فى ذلك كلمة الحسنة . فهى صفة جرت مجرى الاسم . وكذلك كلمة السيئة .

ويمكن أن يلحظ مايوصف بالصالحات من الاعمال دون تعمل وكثير تأمل .

فالاعمال النافعة المعقولة ، والخلال الطيبة المقبولة ، والفرائض التى أوجبها الله علينا فى العبادات والمعاملات ، كل هذه وما اليها أعمال صالحات ، يصلح بها الفرد ، والجماعة ، وتصلح بها الدنيا والآخرة .

ومن ثم كانت بشرى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات .

(الجنة والجنات)

نقول . جن علينا الليل ، أو أجننا الليل : بمعني : سترنا وأخفانا عن غيرنا ، وقد سمى الولد فى بطن أمه جنينا لهذا السبب .

والجنة بكسر الجيم جماعة من الجن ، وهم كما نعرف مستورون عنا ـ بغطاء من الخفاء لا يروننا ولا نراهم .

أما الجنة بفتح الجيم فهى البستان الكثير النخل والشجر ، وقد سمى جنة لأنه بأشجاره الكثيرة ، وأغصانه الملتفة ، وظلاله السابغة يستر الارض ومن يدخله فلا تبصرهما الاعين عن بعد ، اذ لا تقع الانظار الا على الاشجار والثمار .

وسميت دار الثواب فى الآخرة جنة مع مافيها من قصور وأنهار وما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . لأن أشجارها كثيرة تغطى غيرها ، وذلك دليل كمالها فى الجمال ، أو لان الله ستر ما فيها من ألوان النعيم وأنواع اللذائذ عن أهل هذه الدنيا بدليل قوله تعالى « فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين » .

وقد يتفق هذا الرأى الى حد ما مع مايقال من أن ماذكره الله من أوصاف الجنة كالطير ، والخمر والاشجار ، والثمار والانهار انما هى رموز واشارات لنعم أفخم ، وحياة أعظم .

أما جمعها فى قوله « ان لهم جنات » فلانها ليست جنة واحدة بل جنات متفاوتة الاقدار والمراتب على حسب تفاوت أقدار من سيدخلونها ، ويقيمون فيها عند الله .

(لاملل .. ولا كسل)

كنت فى دار صحيفة كبيرة .

وكنا نجتمع بعد العمل آخر الليل فى حلقات تشبه أن تكون ندوات وذات ليلة جرى الحديث عن الجنة والحياة فيها . فصاح صحفى كبير مشهور وقال : « أنا لاأريد هذه الجنة التى يسودها طابع التبطل والتعطل وحياة التنبلة » ..

وبادرت بالرد عليه فقلت أنا معك ولكن ..

وأنصت الزملاء لسماع مابعد لكن .. فقلت .. ولكن اذا كانت مفاهيم الراحة والتعب والسعادة والشقاء ستبقى كما هى دون تعديل أو تبديل ، ولكن الارض ستبدل غير هذه الارض ، والسموات ستبدل غير هذه السموات كما يقول الله فى كتابه . فكيف تبقى دون تبديل هذه المقاييس التى ألفناها وعرفناها . وكيف تبقى معانى الراحة والسعادة والرى والشبع كما نفهمها فى هذه الحياة مسبوقة بما يكدرها ، ويعكرها من ذكريات العناء والشقاء ..؟؟

ومن عجيب المصادفات أننى بعد ذلك بقليل وجدت فى القرآن الرد الصريح على اعتراض الصحفى الكبير . وذلك فى قوله تعالى « ان أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون » فليس فيها ما توهم الكاتب من الاحساس بالتبطل والتعطل والملل والكسل ..

غير أن أحد المفسرين شطح كما شطح صاحبنا ــ فقال ان الشغل هو افتضاض الابكار ، على شواطىء الانهار فى ظلال الاشجار ...

وكان يكفيه أن يفهم من الآية انتفاء التبطل والتعطل وما اليهما مما يوهم غير ما سيكون .

(الماء .. والخضرة)

قد تقف عند قوله تعالى فى وصف الجنة « تجرى من تحتها الانهار» فانها الانهار لا تجرى ، وانما الذى يجرى هو ماؤها المنساب ..!

ولكن عقلك سيهديك الى الحقيقة فى هذا التركيب وما يجرى مجراه مثل سال الوادى . فان الذى يسيل هو الماء لا الوادى .

وقد تقف كذلك عند قوله « من تحتها » فان الانهار تجرى خلالها وفى أرجائها وأنحائها . لا من تحتها ..!

ولكن ذوقك سيرشدك بعد قليل من التأمل الى أن هذا هو التعبير الملائم الموائم لهذا المقام ، فان هذه الجنات لكثرة أشجارها والتفاف أغصانها ، وامتداد ظلالها تبدو كأنها شبكة خضراء يتألق تحتها ماء الانهار .

على أنك لو نظرت الى صفين من الاشجار ممتدين على شاطىء نهر لرأيت النهر يجرى بالفعل من تحتهما . ووجدت هذا التعبير تصويرا لواقع تراه .. ثم ان اقتران الجنة بالانهار كاقتران الجسم بالروح . فان الماء هو الذى يمدها بالرواء والبهاء والنضرة والخضرة ، وهو الذى ينمى ثمارها ، وينضر أزهارها . ويلطف جوها ، ومن ثم كان أول وصف للجنة هو قوله تعالى « تجرى من تحتها الانهار » .

(من نعيم الجنة)

« كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة . وهم فيها خالدون » .

الثمر والثمرة : ما يخرجه الشجر من حمل سواء كان يؤكل أو لا . والازواج جمع زوج . وهو يطلق على الذكر والأنثى ، ومن اطلاقه على الأنثى قول الله لآدم عليه السلام « اسكن أنت وزوجك الجنة » .

والخلد هو الثبات الدائم ، والبقاء اللازم .

يصف الله ثمار أشجار الجنة بأنها تشبه ثمار الدنيا فى الصـــور والأشكال والالوان والروائح ، مع أنها أشهى مذاقا . وأحلى طعمـــا وأعظم لذة ، فكلما قدمت لهم حسبوها من أنواع الثمرات التى عرفوها واستمتعوا بها ، أو تمنوا الاستمتاع بهـــا فى الدنيا ، وأقبـــلوا عليها فى شغف بها ، وشوق اليها • لان الانسان يميل بطبعه الى ما يألفه وينفر مما لا يعرفه •

ولهم مع جمال الاقامة • ووفرة الرزق • وكثرة أسباب النعيم • أزواج طهرهن الله من كل رجس ودنس ، لا يشينهن ما يشين نساء الدنيا من أوضار حسية أو معنوية ، بل يزينهن النقاء والصفاء والحسن والبهاء•

ثم هم الى هذا النعيم الذى يتقلبون فى أفيـــائه الناعمة وأجوائه الباسمة آمنـــون مطمئنـــون لا يكدر صـــفوهم خـــوف من زوال نعمة ، ولا يعكر جوهم فزع من لقاء موت • لان لهم فيها الثبات الدائم والبقـــاء اللازم •

(سيمفونية •• سماوية)

معذرة اذا استخدمت هذه الكلمة الغربية التى تبدو غريبة فى جو تفسير القرآن ، فانى لم أجد أكثر صدقا وعمقـــا وقربا فى التشبيه من معناها •

ان معناها كما سمعت وعرفت قطعة أو قصة موسيقية تقـــوم على أصول متناسقة ، أو أصل واحد ترد اليه هذه الاصول .

تبدأ القصة بهذا الاصل أو الاصول التى تنبثق من هذا الاصل ثم يندفع اللحن ، ويرتفع شيئا فشيئا ، ويحمل مع اندفاعه وارتفاعه معانى مولدة ، وألوانا مجددة ، وأنغاما زائدة . تتسق مع الاصل الذى انبثقت منه ، ثم يعود بعد رحلته ورحلة الاسماع والقلوب معه الى هـــذا الاصل الذى بدأ منه •

ثم يستأنف رحلة أخرى • • ليؤلف باقة أخرى من أنغـام جديدة • ومعان متناسقة متوافقة ، حتى تكون هـــذه الباقة صورة أخرى تكمل وتجمل الصورة الصغرى ، ثم يعود الى الاصل الذى بدأ منه ليبدأ رحلة ثالثة • ثم رابعة • ثم خامسة • الى أن تكمل القطعة أو القصة الموسيقية فى انسجام والتئام •

هذه الصورة نلمحها بشكل أجمل وأكمل وأمتـــع وأرفع فى نظام القرآن ، فان معانيه تنبع من أصل واحد هو الذى نعنيه بقولنا « الحمد لله رب العالمين » •

وقد وجدنا فيما شرحناه من سورة الفـــاتحة الاصول التى ترد الى هذا الاصل الواحد ، ووجدنا فيما شرحناه من الربع الاول من هـــذه السورة ــ سورة البقرة ــ هذه الأصول نفسها بشىء من السعة وقليل من التفصيل .

وسنرى ونسمع من جديد .

ان الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين (٢٦) الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الارض أولئك هم الخاسرون (٢٧) ٠

(هذه الأمثال)

« ان الله لايستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها .. »

ما زلنا ماضين فى النطاق الذى عرفناه . مدفوعين فى السياق الذى ألفناه ، وان كنا فى رحلة جديدة . وجو جديد ..

ان أول آية طالعناها تذكرنا بأن « الحمد لله » وتلهمنا الشعور بأنه ـ لذلك ـ متصف بكل كمال . منزه عن كل نقص ..

وهذه الآية تنفى أن يكون فى ضربه الأمثال بالبعوض ، والذباب ما يريب أو يعيب ، أو ينقص من قدره سبحانه وتعالى .

أن أول آية فى السورة الثانية وجهت الأنظار الى أن هذا الكتاب حق ليس فيه موضع لارتياب مرتاب .

وهذه الآية تنفى أن يكون ضرب المثل فيه بالبعوض أو الذباب مما يثير الشك فيه . أو يهيج حوله غبار الشبهات ، « فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا .. »

ان الآيات التى سبقت هذه الآية تدعو الى عبادة الله والايمان به . وبالكتاب الذى نزله على عبده . وتقرن ذلك ببيان مصيرين ـ مصير تنذر به . وتحذر منه ، وهو مصير الكافرين بالله وبالقرآن ، ومصير تبشر به . وترغب فيه ، وهو مصير المؤمنين بالله وبالقرآن .

وهذه الآية تقرر أن هذا الكتاب لا ينقص من قدره أن تضرب فيه الأمثال بالأشياء التى نراها حقيرة ، كما لم ينقص من قدره أن نزل نجوما متفرقة على حسب الحوادث ، فانه لا تفاوت بيننا وبين هذه الاشياء أمام قدوة الله وارادته كما يفهم من قوله سبحانه « وما من دابة فى الارض ، ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم »

نحن اذن فى السياق ، وان اختلف اللون والمذاق .

(ضرب الأمثال)

لاأريد أن أرهقك بالدوران حول كلمة « ضرب » فان لها معان كثيرة كالسفر فى قولك : ضرب فلان فى الأرض ، وكالمشاركة فى قولك : ضربت مع القوم بسهم ، وكالحجر فى قولك : ضربت على يد فلان بمعنى حجرت عليه ، وكنصب الخيمة فى قول الشاعر

ضربوا بمدرجة الطريق قبابهم ... الخ .

وأقرب معانيها الى ما نحن فيه صب الطين أو المعادن المنصهرة فى قوالب لتخرج منها بعد يبسها وجفافها بمقادير هذه القوالب والاحجام ..

فضرب المثل صنعه أو بيانه بحيث ينطبق على الحـــالة أو القصة المشابهة له تمام الانطباق ·

وقد عرفت المثل فيما سبق بأنه النظير ، أو الشبيه ، أو القصـــة الغريبة التى يشبه بها غيرها ·

والحكمة فى ضرب الأمثال بيان ما يعتريه الخفـــــاء من مختلف الأحوال ، وتقدر قيمتها البلاغية بمدى صدقها وانطباقها على مايراد بيانه·

وقد مثل الله حال من يتخذون من دونه أوثانا بحـــال العنكبوت اتخذت بيتا ، ومثل هوان هذه الاوثان وضعفها وعجزها فى موضع آخر فقال : « ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له · وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه · »

ولكن مع صدق هذا التمثيل وعمقه · وتمـــام انطباقه ، تمسك الكفرة بالعنكبوت والذباب وقالوا : أما يستحى رب محمد أن يضرب المثل بالبعوض والذباب ·· ؟

(شأن المكابرين)

وتذكر كتب التفسير أن اليهود هم الذين اعترضوا على القرآن أن تضرب فيه الأمثال بالأشياء التى يرونها تافهة حقيرة ، وأنهم ضحكوا أو تضاحكوا حين سمعوا الذباب والعنكبوت يضربان مثلين للأصنام · ولكل ما كان يعبد من دون الله ، وأنهم قالوا ما يشبه هـذا كلام الله ·· ! أما يستحى رب محمد أن يضرب مثلا بالبعوض والعنكبوت ·· ؟ فنزل قوله قوله تعالى : « ان الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » ·

ومعقول أن يكون هذا من اليهـــود دون غيرهم من أهـــل الكتاب ومشركى العرب ·

فقد جاء فى الانجيل التمثيل بالنخـالة · وحبة الخردل · والدود والزنابير ، ولم يغض ذلك منه ، أو ينقص من قدره ·

وقد امتلأت أسماع العرب فى البوادى والحواضر بأمثـــال سائرة دائرة كهذه الامثال · مثل : أجرأ من الذباب · وآكل من الســـوس · وأضعف من بعوض ·· ولم يكن فى ذلك ما يثير أى امتعاض أو اعتراض ·

ولكن شأن هؤلاء اللئـام الطغاة أن يلتمســوا الشبهات الواهية ليلبسوا الحق ثوب الباطل ، ومن ثم كان هذا التبجح والتوقح فى انكار كل واضح ، واتهام كل سليم ·

والعجيب أن يتحدثوا عن الحياء ، ويتهموا ما كانوا يسمعونه من كلام الله بعدم الحياء ·

(الحياء)

هل يفهم من قوله تعالى : « ان الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » أن الحياء من صفاته سبحانه ، وأن النفى المستفاد من جملة « لا يستحيى » موجه الى ضرب الامثال بهذه الاشياء التى تبدو هزيلة ضئيلة · لا الى صفة الحياء ·· ؟

أو أنه سبحانه منزه عن هذه الصفة لأنها تدل على ضعف فيه ونقص فى ذاته وصفاته ·· ؟

مما لا شك فيه أن الحياء بالمعنى الذى نعرفه يستحيل على الله جل شأنه ، اذ هو تغير وانكسار يعترى الانسان من تخوف ما يعاب به أو يذم بسببه ، والله لايتغير ، ولا ينكسر ، ولا يتخوف ولا يعاب بفعال ، ولا يذم بخصال ، بل هو سبحانه ـ له الحمد كل الحمد · وهو ـ جل شأنه ـ متصف بكل كمال · منزه عن كل نقص ·

والعقل ينفى ـ كما تنفى الآية ـ الحياء بهذا المعنى وتنفى ما يترتب عليه من عدم ضرب المثل بالبعوضة فما فوقها ·

لكن اذا فهم الحياء بالمعنى الذى يليق بجلاله وكماله فالآبة لاتنفيه ، وقد ورد فى حديث شريف · ان الله حيى كريم يستحيى اذا رفع اليه العبد يديه أن يردهما صفرا حتى يضع فيهما خيرا ·

(قاعدة عامة)

قلنا ان الحياء بمعنى التغير وانقباض النفس من تخوف ما يعاب عليه الانسان أو يذم به لا يليق بالله تعالى ، ولا يصح أن ينسب اليه ، ولهذا لجأ جمع من المفسرين الى تفسيره بما يلزمه وهو الامتناع عن فعل ما يعاب أو يذم ، فمعنى : « ان الله لا يستحيى أن يضرب مثلا» انه لايمتنع من ضرب مثل أى مثل ، لأن ذلك ليس عيبا كما يدعى اليهود ·

ومذهب السلف هو كما يقول فضيلة الشيخ مخلوف فى كتابه « صفوة البيان فى معانى القرآن » اقرار هذا وأمثاله على ما ورد ، وتفويض علم كنهه وكيفيته الى الله تعالى · مع وجوب تنزيهه عما لا يليق به من صفات المحدثات ··

ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن نذكر آية : « ليس كمثله شىء » ونتخذها قاعدة عامة نفسر فى ضوئها كل ما ينسب الى الله من صفات ، كالسمع ، والبصر ، والكلام ، والرحمة ، فهو ـ سبحانه ـ سميع ولكن سمعه ليس باذن وجهاز كأسماعنا ، وهو بصير ، ولكن بصره ليس بعين وشبكة كعيوننا · وهو متكلم ، ولكن كلامه ليس بلسان وحروف وأصوات مثل كلامنا ، وهو رحيم ولكن رحمته ليست رقة فى القلب تقتضى التفضل والاحسان كالرحمة التى نعرفها ونشعر بها فى قلوبنا ·

(كلمة مبهمة)

هذه الكلمة هى « ما » فى قوله « ان الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما » . ومعنى الابهام هو الغموض والخفاء .

تقول : أعطنى كتابا .. فلا يفهم السامع أى كتاب تريد أن يقدمه لك ، لأنك لم تذكر كتابا معينا . أو من نوع معين . كالأدب أو التاريخ ، فاذا زدت كلمة « ما » فقلت أعطنى كتابا ما ، فهم أنك تريد أى كتاب كان ..

ومعناها فى الآية ان الله لا يمتنع عن ضرب مثل أى مثل . سواء أكان بعوضة أم فوق البعوضة فى الضآلة والحقارة . كجناحها . أو كغيرها من الهوام التى لا ترى الا بالمجهر .

ويحتمل أن يكون المراد من قوله « فما فوقها » ما فوقها فى الجرم والحجم كالذباب وغيره من أنواع الطير والدواب .

ويلاحظ أن هذه الاشياء والمخلوقات الحقيرة فى نظرنا وتقديرنا لم يصفها الله بالحقارة فى أية آية من كتابه الا ليهون الانسان من شأن ما يراه جسيما أو عظيما أمام عظمة الله وجلاله .

ولو انكشفت لنا أسرار خلق هذه الاشياء ، وعرفنا تفاصيل أعضائها ، وأجزائها ، ووظائف كل عضو فيها . لطالعنا فيها حقائق أروع وأبدع ، وازداد ايماننا بقدرة الصانع المبدع ، الحكيم العليم .

(تحت المجهر)

وقد تحدث الزمخشرى — رحمه الله — فى تفسيره الكشاف عن دابة فوق البعوضة فى الحقارة والقلة فقال : وفى خلق الله حيوان أصغر منها . ومن جناحها ، وربما رأيت فى تضاعيف الكتب العتيقة دويبة لا يكاد يجليها للبصر الحاد الا تحركها ، فاذا سكنت فالسكون يواريها ، ثم اذا لوحت لها بيدك حادت عنها ، وتجنبت مضرتها ، فسبحان من يدرك صورة تلك ، وأعضاءها الظاهرة والباطنة ، وتفاصيل خلقتها ، ويبصر بصرها ويطلع على ضميرها ، ولعل فى خلقه ما هو أصغر منها وأصغر : « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون » .

ولو بعث الزمخشرى فى هذا العصر ، ورأى ما يكشف المجهر لعين الانسان من مختلف أنواع الجراثيم والحيوان ، لعرف ما لم يكن يعرف . وهو أن فى خلقه تعالى ما هو أصغر حجما وجسما من البعوض ومن تلك الدويبة التى يواريها السكون بمئات الآلاف من الأضعاف .

وسيأتى العلم بالجديد تلو الجديد ليؤكد للناس الايمان بالذى خلق الازواج كلها مما تنبت الأرض . ومن أنفسهم . ومما لا يعلمون .

(مقارنة وموازنة)

« فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم . وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا » .

تأمل سر التعبير عن حال المؤمنين بأنهم يعلمون .. وسر التعبير عن حال الكافرين بأنهم يقولون .. فستخرج من الموازنة والمقارنة بأن الطابع العام للمؤمنين هو الفهم والعلم ، والتمسك بالحق ، وان الطابع العام للكافرين هو الجهل . والاستخفاف والتعلق بالوهم .

لهذا كان موقف المؤمنين من ضرب المثل بالبعوضة فما فوقها في الحقارة أو كبر الحجم موقف العالمين الفاهمين الذين لا يستخفون بمظهر صغير قد يكون من ورائه سر خطير ، وكان موقف الكافرين منه ـ على عكس ذلك ـ تسرعا في الاستخفاف والازدراء والتساؤل في احتقار واستصغار عما أراده الله من هذا المثل .

ان التمثيل يصار اليه لكشف المعنى . وتقريب ما يتوهم الى ما يشاهد . وعرضه في صور المحس الملموس ، فاذا كان حقيرا مثل له بحقير ، واذا كان عظيما مثل له بعظيم ، وهذا هو المقياس الذى تواضع عليه البلغاء ، فلا يطعن في قيمة التمثيل . وفي أنه حق وصدق استخفاف الكافرين به . واحتقارهم اياه . وتساؤلهم عنه .

(وراء كلمة ..)

ان وراء كلمة « أما » في قوله تعالى « فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا» معنى يحسن أن ينتبه له القارىء .

ان معناها . مهما يكن من شيء فان المؤمنين يعلمون علم اليقين أن هذا المثل حق من الله ، لأنه لا يكذب ولا يمين ، ولان العلم يرشد الى أنه حق . ويشهد بأنه صدق .

ومعنى مهما يكن من شيء . مهما يحدث أى شيء . فلن يصرف المؤمنين عن العلم بأن هذا المثل حق لا شك فيه .

ولا شك أن في ذلك من التأكيد والاشارة بحال المؤمنين ما ليس في قولك : الذين آمنوا يعلمون أنه الحق من ربهم .

وهذا التأكيد يفهم في جانب الكافرين على أنه نعى عليهم وتشهير بهم ، لان معناه . مهما يكن من الدلائل والشواهد الناطقة بان هذا المثل حق وصدق . فانهم يغفلونها ويهملونها ويسارعون الى التساؤل عنه في احتقار وازدراء ، لانهم لا يريدون معرفة الحق وانما يريدون ستره . واخفاءه . واثارة الشبهات حوله .

هذا الى أن معنى « أما» هنا كذلك التفصيل والبيان لحالى الفريقين .

(الله · والرب)

لو قلت الله هو الرب · والرب هو الله · لم يتهمك أحد بالكذب ـ مع أن الكلمتين مختلفتان فى المفهوم ·

فقد عرفت أن الرب هو المالك المتصرف ، والسيد المطاع ، والمربى المصلح ، وأن كلمة « الرب » بالالف واللام لا تطلق الا على الله تعالى ·

أما كلمة « الله » فيقولون ان أصلها « الاله » كما أن كلمة الناس أصلها « الأناس » ثم حذفت الهمزة للتخفيف · وأدغمت اللام الاولى فى اللام الثانية ، ثم فخمت اللام المشددة ، وصارت الكلمة علما على ذات المولى · جل وعلا ، واسما له فلا يفهم منها غيره ·

وكلمة الله معناها المعبود بحق ، بخلاف كلمة « اله » فان معناها المعبود بحق أو بغير حق ، وقد عرفت معنى العبادة فى تفسير «اياك نعبد» ·

لكن كلمة « الله » بعد أن صارت اسما وعلما على الذات أصبح يفهم منها مجرد الذات ، مثل كلمات محمد · ومحمود · وعبد الرحيم ، فانها تدل على الذوات المعينة دون الحمد المفهوم من الكلمتين الأوليين · والعبادة والرحمة · والعابد والمعبود التى تفهم من الكلمة الثالثة ·

أظن بعد هذا أنك ستدرك سر التعبير بكلمة « ربهم » فى قوله تعالى « فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم » وسر التعبير بكلمة « الله » فى قوله ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا » ·

(سر التعبير)

ان سر التعبير بكلمة « ربهم » هو الاشارة الى أن المؤمنين يتلقون كل ما يصدر عن الله بالقبول ، وان خفيت حكمته على العقول ، لانهم يذكرون أن الله ربهم · ويشعرون بما ينبغى له · وما يجب عليهم نحوه ، وليس معنى ذلك أن يوصدوا أبواب البحث والتفكير فيما أودع الله فى مخلوقاته· أو فيما أمرهم به ونهاهم عنه من حكم وأسرار ، وانما معناه أنهم يتخذون من ايمانهم بالله واطمئنانهم الى أن كل ما يصدر عنه حق وصدق · محورا يدور حوله نشاطهم العقلى فى تعرف أسرار الخلق ، والتمسك بأهداب الحق ·

وأما سر التعبير بكلمة « الله » فى قوله « وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا » فهو الاشارة الى أن الكافرين ـ لانهم كافرون ـ يتلقون ما يصدر عن الله بعدم المبالاة ، لانهم لا يذكرون أنه ربهم ورب كل

شيء ، ولهذا يتظاهرون بالحيرة والارتياب ويتغافلون عن أن الحق لايصدر عنه الا الحق ، ومن ثم يتساءلون ماذا أراد الله بهذا مثلا ·

(الهداية توفيق)

« يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين »

لا أدرى أنسيت أم أنسيت أن أذكر لك عند تفسير الهداية أنها توفيق من الله ·· ؟

وانما أذكر اننى ذكرت فيما ذكرت عند تفسير قوله تعالى : ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ·· ان الختم على الحواس عقاب عاجل من الله بدليل قوله : « بل طبع الله عليها بكفرهم ·· »

أما أن الهداية توفيق من الله فآية ذلك ما نجده من ضلال أهل الفهم ، وخبال أهل العلم فى كثير من مشكلات الدنيا · وشئون الدين ، فكم من فتنة تدع الحليم حيران ، وكم من مشكلة معضلة لاتجد حلها الا فى الهام خفى ينبعث من داخل النفس قبل الرأس ، وقد يكون مع العلم الضلال كما يفهم من قوله تعالى : « أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم »

ولعل هذا هو السر فى أننا نطلب الهداية من الله فى كل صلاة ، ونتوجه اليه داعين أن يهدينا الصراط المستقيم ·

اذا ذكرت ذلك فهمت لماذا يضل الله الكثير · ويهدى الكثير ·· ؟ ولماذا يرتب الثواب على الهدى · والعقاب على الضلال ··؟

ان اضلال الكثير عقاب عاجل لهم بسبب الكبر ، والكفر ، والتمرد على أوامر الله ·

وهداية الكثير عقاب عاجل لهم بسبب انقيادهم له ، وامتثالهم أمره·

ومما يؤيد ذلك قول الله عقب ذلك ، «وما يضل به الا الفاسقين» ·

(تصيد الشبهات)

عرفنا أن أثر ضرب المثل فى القرآن بالأشياء التى تبدو تافهة صغيرة يختلف فى نفوس المؤمنين عنه فى نفوس الكافرين ·

فالمؤمنون يبادرون الى الايمان به ، والاطمئنان اليه لمجرد أنه من ربهم ، ثم ينتهى بهم التلبث والتريث والبحث العميق الدقيق الى العلم فوق العلم بأنه حق وصدق ·

والكافرون يتصيدون الشبهات الواهية المتداعية ، وينخدعون بها

عما ينطوى عليه المثل من الحق والصدق · فيضخمونها · وينفخون فيها · ويتخذون منها مثار ثرثرة ولغط ، وتجاهل وتساؤل ، ليحجبوا بالغبار ضوء النهار · ويقولون فى احتقار : « ماذا أراد الله بهذا مثلا ·· » ·

ان ذلك شأنهم فى الآيات المتشابهات ، وقد حكى الله حالهم وحال المؤمنين ازاءها فقال · « فاما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الألباب » ·

(الفسق والفاسقون)

تطلق كلمة الفسق ويراد منها بحسب العرف نوع خاص من الخروج عن طاعة الله ، يصحبه استهتار وتبذل وتحلل ·

ولكن القرآن لا تفسر ألفاظه بما يفهم منها حسب العرف العام أو الخاص ، وانما تفسر بما كان يفهم منها حين نزوله بها ·

قد يقال ان كلمة « فاسق » لم تسمع من العرب قبل القرآن · ولم يعهد استعمالها فى كلام الجاهلية · ولكن يجاب عن ذلك بأن أصلها كان يسمع ويستعمل فى خروج شىء من شىء على وجه الفساد ، فكان يقال فسقت الرطبة · اذا خرجت من قشرها ، وفسق فلان خرج من طريق الحق والقصد ، وفسق عن الأمر خرج عنه ، ومنه قوله تعالى « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » ·

وقد يقال : انه كما ضيق العرف العام الآن مفهوم كلمة فاسق ضيقه قبل الآن العرف الشرعى ، فصار الفاسق هو الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة ·

ولكنى أقول مع ذلك لا مانع لدينا ـ ولا علينا ـ أن نفهمها من القرآن بمدلولها الواسع الذى يشمل كل خروج عن الحق · وكل جور عن سنن الاعتدال ، وكل عصيان لأمر الله ·

وقد وصف الله الفاسقين فى الآية التالية بصفات تسع كل هذه المخالفات · فذكر أنهم ينقضون عهده من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض ·

(نقض العهد)

« الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه · ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الارض » ·

ونقض البناء : هدمه · ونقض الحبل أو الغزل حله · ومن ذلك

قوله تعالى : « ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قـــوة » فالنقض بعبارة قصيرة هو الفسخ وفك التركيب .

والعهد هو الوصية المؤكدة ، فاذا قلت عهد فلان الى فلان فى كذا ، كان المعنى وصاه .

وهو كذلك العقد المتفق عليه . الذى تعاهد المرتبـــطون به على احترامه والتزامه .

وكان العرب لذلك يسمونه حبلا ، لأنه يحكم الصلة بين المتعاهدين أو المتعاقدين . كما يحزم المتاع ويحكـــم جمعه ووضعه بالحبل ، ومن ذلك قول رجل من الأنصار للنبى صلى الله عليه وسلم فى بيعة العقبة: يارسول الله : ان بيننا وبين قوم حبالا ، ونحن قاطعوهـــا . فقد كان يعنى بالحبال العهود والمواثيق .

وعلى هذا الأساس يكون التعبير بنقض العهد مشعرا بأن العهـــد حبل أو كالحبل ، ونقضه معناه حله بعد أن كان مبرما ومحكما، أما على أن معناه الوصية فيكون معنى نقضه عدم احترامه والتزامه .

(عهد الله)

اذا احترنا من معـــانى العهد ـ وهى كثيرة ـ معنى الوصية التي يطلب مراعاتها سهل الامر فى تفسير المراد بعهـد الله ، فكل ما وصى الله به عباده وأمرهم بمراعاته والحرص عليه . يدخل فى المراد بعهد الله، بل كل أمر ذى خير ينعقد عليه الاتفاق . ويؤخذ عليه الميثاق بين اثنين أو جماعة يمكن أن يدخل فى المراد بعهد الله ، من حيث أن الله أمر بالوفاء به . وطالب باحترامه والتزامه ..

لكن بعض المفسرين اختار من معانى العهد «الموثق» ، وذكر أن الله أخذه على عباده بما منحهم من نعمـة العقل ، فانه الحجة القائمة الدائمة الدالة على وجوب وجوده . وتوحيده . وصدق رسله ، وقد استرشد فى ذلك بآية « واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى .. »

أو هناك موثق آخر أخذه الله على الأمم عن طريق رسله اليهم وهو تصديق كل رســول مؤيد من الله بالمعجزة الدالة على صدقه ، واتباعه . وعدم كتمان خبره . أو مخالفة أمره ، وقد استرشد فى ذلك بآية : « واذ أخـذ الله ميثـاق الذين أوتوا الكتـاب لتبيننه للنـاس ولا تكتمونه »

وقيل كذلك ان عهود الله الى خلقـه ثلاثة . عهد على ذرية آدم بأن يقروا بأنه ـ دون غيره ـ ربهم ، وعهد على الأنبياء أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه ، وعهد على العلماء أن يبينوا الحق ولا يكتموه ..

اعتمد على الله واختر ـ كما اخترت ان العهد هو الوصية . وان عهود الله هي وصاياه ..

(توثيق العهد ..)

الشيء الوثيق هو القوى الثابت المحكم .

والوثاق ـ بفتح الواو ـ هو القيد والحبل ونحوهما من كل مايشد به الشيء ويصير به محكما قويا .

وقد فسر فى هذه الآية بهذا المعنى الأخير ، فقيل فى معنى « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه » من بعد قبولهم له ، واعتزامهم رعايته . والتزامهم العمل به ، فان هذا وما اليه مما يحكمه ويقويه .

وفسر الميثاق تفسيرا آخر ، فقيل انه التوثيق والتثبيت أو التقوية ، ومآل التفسيرين كما ترى واحد ، وهو قوة العهد ووثاقته

ونقض العهد بعد ميثاقه يعنى أن هؤلاء الفاسقين على الرغم من وجوب احترام العهد بعد تقويته منهم بقبوله أو من الله بتأكيده . لا يرغبون له حرمة ولا ذمة ، بل يوهنون ما أحكموه . وينقضون ما أبرموه ..

واذا كان هذا شأنهم ودابهم مع عهد الله خالقهم ورازقهم . فكيف بهم مع العهود التى يبرمونها مع الناس .

هذا .. ويلاحظ ان كثرة المفسرين على أن المعنيين بهذا الكلام هم اليهود .

(مع الناس ..)

« .. ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض »

اذا كان عهد الله هو الحبل الذى يصل الانسان بربه ، سواء فسر العهد بالوصية المؤكدة منه ، أو بالاتفاق الذى انعقد بينه وبين الناس بمقتضى ما منحهم من العقول والفطر السليمة أن يعبدوه ويوحدوه . ويصدقوا رسله فيما يبلغونه عنه ..

اذا كان عهد الله هو حبله كما كان العرب يسمون العهد حبلا ، وكان عمل الفاسقين هو نقضه وحله ، والانفصال عن الله بنقضه وحله .. فان عملهم مع الناس هو هذا ايضا ، يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ..

فكل ما أمر الله به من صلات تقوم بين الناس بعضهم وبعض ،

أو بين الناس ورب الناس . فعمل الفاسقين قطع هذه الصلات، وحل هذه الاواصر ، وتمزيق شمل الجماعات ، والسعى فى الأرض بالفساد .

وكل صلة مشروعة شريفة تنعقد بين فرد وفرد . وبين جماعة وجماعة . وبين أمة وأمة ، وبين الله والناس من الأفراد والجماعات والأمم . يعمل هؤلاء على قطعها ، وبذلك يصاب المجتمع بالخلل فى بنائه ، والانحلال فى أفراده ، وينفسح أمام هذه الحشرات الآدمية مجال الاستغلال فى الظلام ..

اليست كثرة المفسرين على حق اذ تقرر أن هذه الأوصاف تنطبق أول ما تنطبق على اليهود ..؟

على أية حال .. والعبرة بعموم اللفظ ، فكل من تنطبق عليه هذه الصفات يعد من الفاسقين ..

(أولئك هم ...)

« أولئك هم الخاسرون »

الذين ينقضون ما أبرمه الله من أوامر . وأحكمه من وصايا ، والذين يتحللون من العهد الذى وثقه الله عليهم ، ووافقوه عليه بلسان حال العقل .. أن يعبدوه لا يشركون به شيئا . وأن يصدقوا رسله فى كل ما يبلغونه عنه .

الذين يقطعون صلتهم وصلة الناس بالله ، وصلة الأنبياء بعضهم ببعض . اذ يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، وصلة الناس بعضهم ببعض ، فيمشون بالنمائم لاثارة سموم الخصام . وقطع أواصر الارحام، ويسعون بين الجماعات بعوامل الفرقة والمنازعات. حتى تنحل الروابط، ويختل النظام ، وتضعف الأمة .

الذين يفسدون فى الأرض بالفتن والدسائس . يثيرونها بين الأفراد والجماعات ، وبالحروب يضرمون نارها بين الأمم والشعوب لتهلك الحرث ، وتفتك بالنسل ، وتنشر الهلع والفزع حيث يكون الأمن والسلام .

هؤلاء هم الذين خسروا الدنيا والآخرة ، لأنهم استبدلوا النقض بالوفاء والقطع بالوصل ، والفساد بالصلاح ، والعقاب بالثواب .

هؤلاء هم الفاسقون الذين يضلهم الله بالشبهات والمتشابهات ، ثم لا يكون من الضلال الا الخسران الدائم اللازم فى الدنيا والآخرة .

كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فاحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون (٢٨) هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم (٢٩)

(قصة كل قصة)

« كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون »

هذه قصة كل قصة فى الحياة .

انها قصة الانسان من مبدئه الى منتهاه .

قصة وجوده وما يصحب وجوده من ميول وغرائز . ومرض وصحة وأحداث ومغامرات . ونزاع وصراع . ولذة والم . وسعادة وشقاء . وسلام وحرب . وحب وبغض . وشبع وجوع . وري وظما. وما لا يحصى ولا يستقصى من القصص الصغيرة والكبيرة التى يسمعها ويراها . أو يكون بطلا فيها ، ثم السكون الذى يعقب هذه الضجة بالموت ، ثم الصمت الرهيب الذى يسود جو القبور ، ثم البعث المحتوم ليوم الفصل بين الظالم والمظلوم ، ثم الثواب أو العقاب فى الجنة أو النار .

هذه القصة التى تنطوى فيها كل قصة انسانية ترجمتها الآية فى كلمات ..

أنها تبدأ بالله . وتنتهى الى الله . ومع ذلك يتخللها الكفر حيث يجب الشكر . فكيف يقع الكفر بدل الشكر ..؟

ومن ثم نرى أن الاستفهام فى الآية يراد به انكار الكفر على الكافرين . لا طلب الفهم والعلم ، اذ كيف يستفهم الله وهو لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ..؟

(صورة استفهام)

أشرنا الى أن الاستفهام المفهوم من كلمة « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم » ليس هو طلب الفهم والعلم الذى يفهم من حقيقة كل استفهام ، والا كان معنى ذلك نسبة الجهل الى من يعلم كل أمر . ويدرك كل سر ، بل يعلم ما ينطوى عليه كل صدر من الوساوس والهواجس كما يقول سبحانه « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد »

وانما يراد بالاستفهام هنا انكار ان يقع من الكفار الكفر بالله بدل الشكر له على نعمة الحياة ، وتعجب من أن يكون هذا منهم مع

مايرون من نعم متلاحقة، وشواهد صادقة، وأدلة ناطقة، فانها تستوجب شكره ، وتقتضى الايمان بوجوب وجوده ، وتشهد بانه سبحانه واهب الوجود لكل موجود ..

والتعبير عن الانكار والتعجب بالاستفهام كثير فى فصيح الكلام ، فانك تقول فى دهشة وانفعال لمن رأيته يضرب أباه : كيف تضرب أباك وقد ربّاك ..؟ وتريد بذلك اظهار التعجب منه . والانكار عليه ...

ولكن الله لا يتعجب . لان التعجب انفعال فى النفس لشىء خفى سببه ، وهو سبحانه لا ينفعل ، ولا يخفى عليه سبب ، واذا ظهر السبب بطل العجب كما يقال .

وانما سيق الكلام على هذا النظام ليثير فينا الاستياء والازدراء والتعجب من هؤلاء المنكرين الكافرين .

(الاحياء .. والحياة)

الاحياء . هو اعطاء الحياة .

والحياة نؤمن بوجودها جميعا ، لا فرق فى ذلك بين الذكى والغبى . والكبير والصغير ، ولكننا مع ايماننا جميعا بها لانعرف كنهها ولاحقيقتها وانما نعرف وجودها بآثارها التى تنشأ عنها من احساس وادراك بالحواس . وحركة تصدر عن اردة واختيار.

ومن ثم عرفها القدماء من العلماء بأنها : صفة تقتضى الحس والحركة الارادية .. ثم أطبقوا أفواههم ولم يفتحوها بكلمة واحدة تكشف عن حقيقة هذه الصفة ، أو ترفع الحجاب عنها .

وعلى الرغم من سعة العلم ، ومدى ما وصل اليه من عمق وتدقيق لم ينفذ حتى الآن الى معرفة كنه الحياة ، واستجلاء حقيقتها الذاتية بل بقى سرها . كالروح . والجاذبية . والكهربا . من الأسرار المحجوبة التى لا يعلمها الا الله ..

وهذه الحياة التى نعرفها بآثارها . ونحرص عليها فى انفسنا وفى ابنائنا . وفى كل ما ينفعنا من الأحياء ترشدنا الى أن صانعها ومبدعها هو الله وحده لا شريك له ، فكيف يكون الشكر له كفرا به ..؟

ذلك بعض ما توحى به جملة « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم » .

(دلالة الحياة)

قد يقول قائل لم اقتصر فى هذا المقام على هذا الدليل العام فى الرد على من يفكرون بالله .. ؟

والجواب من ذلك أنه دليل تنطوى فيه كل الأدلة .

فالحياة التى بهـــا نحس ، ونتحرك ، ونفكر ، ونريد ، ونعمـــل لتحقيق ما نريد ، هى كل شىء بالنسبة للانسان ، وعليها يقوم نشاطه وسعيه ، بل هى المحور الذى يدور حوله كل ما فى الأرض ، وما عليها ، وما حولها ، وسيأتى فى الآية التالية أن الله خلق للانسان كل ما فى الأرض ، وفى آيات كثيرة أخرى أن الله سخر له الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار ، والهواء والسماء .

فالحياة اذن هى كل شىء بالنسبة للانســـــان ، وقـــد خلق الله آدم من تراب . ثم نفخ فيه من روحه فصار حيا ، وخلق بنى آدم من ماء ينصب فى الأرحام من الأصلاب ، ثم ســواه ونفخ فيه من روحـه وأخرج منه أحياء ، وحتى هذا الماء الذى خلق منه الانسان من بنى آدم مرده الى الأرض وما فيها من عناصر التغذية « منها خلقناكم وفيهـا نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » .

فاذا كانت الحياة وكل ما يتصـــل بها من الله وحـده ، فليس للانسان أن يتجاهل هـــذه الحقيقة ، وينكر وجود من أوجده ، وحياة من أحياه .

ومن ثم كان قوله تعـالى : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمـواتا فأحيـاكم » هو الرد المفحم والملجم . والدليل الذى ينطوى فيـه كل دليل ..

(سؤالان واحتمالان)

السؤال الأول هو : ما المراد بالاحياء الثانى فى قوله تعالى « كيف تكفـرون بالله وكنتم أمواتا فأحيـاكم ثم يميتكم ثم يحييكم » هل هو الاحياء فى القبر . أو هو الاحياء بالنشر والبعث من القبر ..؟

وقد أجيب عن هذا السؤال باحتمال الأمرين .

فاذا كان المراد هو الاحياء فى القبر كان الرجوع فى قوله « ثم اليه ترجعون » مرادا به النشور ، والبعث من القبور .

واذا كان المراد بالاحياء الثانى هو البعث والنشـور كان الرجوع فى قوله : « ثم اليه ترجعون » مرادا به المصـير الى ما أعـده الله من الثواب أو العقاب .

السؤال الثانى هو : اذا كان الاستفهام ـ كما قدمنا ـ معنـاه التعجب والانكار . فمن أين جاء الانكار مع هذه القصة وما تنطوى عليه من أطوار ..؟ أكان لأنها مشـتملة على آيات تصرف عن الكفر أو لأنها مشتملة على نعم تستوجب الشكر ..؟

وقد أجيب باحتمال هذا أو ذاك . واحتمال الأمرين معا . وهذا ما أميل ـ وستميل بعد التأمل ـ اليه .

حرفان ..

قد يستوقف النظر فى هذه الآية حرفان ذكر أحدهما مرة ، وذكر الثانى ثلاث مرات :

هذان الحرفان هما (الفـــاء » فى كلمـــة « فأحياكم » من قوله « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم » و « ثم » فى الجمل التى تليها « ثم يميتكم ، ثم يحييكم . ثم اليه ترجعون » .

انهما حرفان يمكن أن نستشف منهما مراحل قصة الانسان ..

أولهمـــا يدل فى الاستعمال العربى على الترتيب والتعقيب ، بمعنى انك اذا قلت حضر محمد فأحمـــــد . فهم من كلامك أن حضـــــور أحمد وقـــع بعد حضـــــور محمد فورا ، ودون تراخ فى الزمن بين كل منهما ..

وثانيهما يدل على الترتيب مع التراخى والتأخير ، بمعنى أنك اذا قلت حضر محمد ثم حضر أحمد . فهم من كلامك أنحضور أحمد وقع بعد انقضاء مدة من حضور محمد .

على ضوء هذين المفهومين لهذين الحرفين يمكنك أن تلمح ما توحى به الفاء فى كلمة « فأحياكم » من أن الاحياء يأتى بعد الموت دون تراخ وتأخير ، أما الاماتة فتحدث بعد العمر الطويل أو القصير .

وكذلك الاحياء الثانى يكون بعد فترة السكون فى القبور .

والرجوع الى الله ليثيب المحسن ويعاقب المسىء يكون بعد ذلك بمدة تقصر أو تطول .

ومن ثم كان المكان فى كل هذه الأطوار مكان « ثم » لأنها تدل على الترتيب والتأخير ..

صيغ أفعال

يلاحظ أن فى هذه الآية عدة أفعال منسوبة الى الله . ذكرت بصور مختلفة .

الفعل الأول الاحياء ، وقد عبر عنه بما يدل على المضى والانقضـــاء والانتهـــاء ، لأنه خطاب لمن أحيـــاهم اللهبالفعل . وذلك حيث يقـــول « وكنتم أمواتا فأحياكم » .

الفعل الثـــانى الاماتة . وقد عبر عنه بما يدل على حصـــوله فى المستقبل ، لأن الموت يحدث لهم بعد سماع الخطاب ، وذلك حيث يقول: « ثم يميتكم » .

الفعل الثالث « الاحياء » وهو الثانى بعد الحياة الأولى والموت الثانى وقد عبر عنه كذلك بما يدل على حصـــوله فى المستقبل حيث يقول « ثم يحييكم » .

ولست بحاجة بعد هذا لمعرفة سبب التعبير عن الرجوع بما يدل على حصوله فى المستقبل ، فان البعث سيكون بعد هذه الآماد المتطاولة من الزمان ، وان كان تقديرها بعد البعث فى نظر بعض النـاس سيكون يوما أو بعض يوم ..

للمؤمنين ..

اذا كانت الحياة وهى معقد كل أمل . ومناط كل رجاء . ومرجع كل ما تطمح اليه الهمم . وتتجه نحوه العزائم . زمامها بيد من أوجدها وهو الله .

واذا كان الموت وهو عدم الحياة ، ومصير الأحياء ، وطيف الخـوف الذى يعرض للانسان فى كل آن ، فيخشاه ويتوقاه .. هو كذلك بيد القاهر القادر وهو الله .

واذا كان الاحياء بعد الموت للنشور . وبعث الموتى من القبور . الى حيث يثاب المحسن ، ويعاقب المسىء ، ويقتص للمظلوم من الظالم . هو كذلك من عمل الله .

واذا كان الانسان مدينا لله فى كل هذه الأطوار والأدوار . مرهونا بارادته . فى تعبه وراحته . ومرضه وصحته . وشقائه وسعادته اذا كان كل ذلك كان معناه ومقتضاه أن يراقب ربه فى كل حال من أحواله ، وعمل من أعماله ، فيؤمن بوجوده معه أينما كان .. ، ويعمل ما ينفعه فى دنياه وأخراه « يوم لاينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم »

ذلك ما يجب أن يفهمه المؤمنون من قول الله للكافرين : « كيف تكفـرون بالله وكنتم أمواتا فأحيـاكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليـه ترجعون » .

دليل البعث ..

ويستطيع القارىء أن يرى فى مضـمون الكلام بهذا المقام دليل البعث فى صور ثلاث .

الصـورة الأولى يمكن التقاطها من قوله تعالى : « وكنتم أمواتا فأحياكم » فقد كنا ـ قبل أن نكـون أحياء ـ أجساما ميتة . أو أخلاطا من أغذية أرضية لا حياة فيها ، ثم خلقنا الله ، وسوانا ونفخ فينا من روحه فأحيانا ، ومن قدر على ذلك الخلق والاحياء فى الابتداء . كان قادرا عليه فى الاعادة « قل يحييها الذى انشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » .

الصورة الثانية فى الاخبار عن البعث بقوله « ثم يحييكم ثم اليه

ترجعون » فان ذلك الاخبار من الله ، وهو ـ سبحانه ـ يستحيل عليه أن يكذب ، أو يخلف وعده .

الصورة الثالثة نلمحها من خلال الآية التى تلى هذه الآية وهى « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم » فان خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ومن قدر على خلقهن . وخلق ما فيهن كان قادرا على أن يعيد خلق الناس « أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم » .

هذا الى أن العدل الالهى ـ كما قدمنا ـ يقتضى البعث والحساب حتى لا يفلت مسىء من عقاب . ولا يحرم محسن ثوابا ..

للناس جميعا ..

« هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم » .

هذه نعمة أخرى تشتمل على نعم كثيرة كبرى ..

لقد كانت النعمة الأولى التى واجه بها الله من يكفرون به هى الحياة التى صاروا بها أحياء . بعد أن كانوا أمواتا ، فانه ـ جل شأنه ـ هو الذى أوجدها ، وهى ـ كما قدمنا ـ كل شىء . أو أساس كل شىء عند الانسان .

والنعمة الثانية التى تتحدث عنها هذه الآية هى خلق وسائل الحياة التى يقوم عليها قوامها ونظامها ، والوسائل التى تكملها وتجملها فى الأرض التى تقل . والسماء التى تظل . وفيما بينهما من ماء وهواء. وشعاع يحمل الدفء وكواكب ترسل الضوء .. و . و. و . الى آخر ما لا يحصى ولا يستقصى .

والنعمة الثالثة التى تتحدث عنها الآية التى تلى هذه الآية هى ـ كما سنرى ـ تكريم الانسان . وايثاره بالخلافة فى الأرض على الملائكة لاستثمارها وتعميرها ، حتى صارت له السيادة على غيره من المخلوقات، وذلك بعض ما يفهم من قوله تعالى « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

أليس مما يثير العجب والانكار أن تقابل هذه النعم العامة لجميع الناس بالكفر من بعض الناس ..؟

لمن هذه الآية ... ؟

من الذين يعنيهم الله بقـوله : هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا ..؟

هل هم الأوربيون والأمريكيون الذين سبقونا فى الاستثمار، وغلبونا بالاستعمار وسلبونا ما بين أيدينا وتحت أرجلنا من خيرات وثمرات ؟ .

هل هم هؤلاء الذين يعتصرون الجذور والبذور ، ويركبون الماء والهواء ويغزون الأرض والفضاء ..؟

لكأنما نزلت هذه الآية لهؤلاء ففهموا أن كل شيء فى الارض خلق لخيرهم ، وأخذوا يجدون ويكدون فى تعرف خصـائص الاشـياء التى يجدونها ظاهرة فوق سطحها ، أو مخبوءة فى أعماقها وأطباقهـا ، ثم يستخدمونها فيما يعود عليهم بالنفع والخير والرخاء ، حتى صار لهم من وراء ذلك ما تمتلىء به الدنيا من المصـنوعات والمخترعـات وشتى وسائل اشباع الحاجات .

وكأنما جهل المسلمون الاسلام فلم يسمعوا هذه الآية ، ولم يقرءوا غيرها من مئات الآيات التى توجه عقولهم الى أن كل ما حولهم مسخر لهم مثل قوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخـرج لعبـاده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » .

ولو فهموا الاسلام حق الفهم . وعلموه حق العلم . لعملوا بمقتضاه، وساروا على هداه ، وكانوا بعلمهم وعملهم مثال الجمال فى الدنيـا . والكمال فى الدين .

مبدأ الانحراف

.. أن مبدأ انحرافنا عن طريق الخير والقوة والحياة الكريمـة الطيبة يرجع الى الوقت الذى انحرف فيه معنى الدين فى أذهاننا حتى فهمه البعض مجرد عناية بشـئون الروح ، وتركه البعض ليتحلل من قيود هذه الحياة السـلبية ، ويشبع حاجاته ، ويمتع شـهواته بكل الوسـائل المشروعـة وغير المشروعـة ، واضطرب البعض بين هـذين الاتجاهين ، يخلط عملا صالحا وآخر سيئا ، ويخبط فى ظلمات الجهـل ومتاهات الضلال . لا يعرف غاية جامعة . ولا يستهدف غرضا عاما.

ولو أن المسلمين أقبلوا على القرآن يتفهمـونه . ويستهدونه . لعرفوا أن الاسلام نظام عام . يحقق التوازن بين مطالب الروح ومطالب البدن ، ولوجدوا من أمثال قوله تعالى « هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا » ما يحفز هممهم وعزائمهم الى الجد والكد . والعمل على توفير أسباب الحياة الحرة الكريمة من هذه الأرض التى خلق الله لهم كل ما فيها . فبعضـه ينتفع به دون تصنيع ، وبعضـه ينتفع به بعد تصنيع ، وكل

ما فيها نافع مفيد فى شئون الدين كما هو نافع مفيد فى شئون الدنيا، فان العلم به وبما قام عليه هذا الكون من نظام واحكام يقطع بأنه لايمكن أن يوجد دون منظم موجد ، ويملأ النفس شعورا بجلال الخالق . وايمانا بعظمة قدرته واحساسا بآثار رحمته .

السماء .. والسموات

كلمة السماء مأخوذة من السمو . وهو العلو

ومن ثم سمى السقف سماء . فقيل : أصلح سماء بيته ، أى سقفه .

وسمى المطر سماء فقيل : أصابتهم سماء غزيرة . أى مطر .

وسمى ظهر الفرس سماء فقيل : فرس رفيع السماء أى الظهر

وسميت الاجرام العلوية ، وجهات العلو سماء كذلك .

وقد غلب استعمال كلمة السماء فى هذه القبة المضروبة المنصوبة حول الأرض ، ولكننا ونحن نراها تظلنا فوق هذه الأرض التى تقلنا لم نعرف حتى الآن ــ مع ما ابتكره الانسان من أجهزة الرصد ــ حقيقة جرمها وحجمها وجسمها ...

فاذا قرأت فى كتب التفسير أنها كانت دخانا ملتزقا بالأرض ، وان الأرض وقت ذاك كانت كالفهر ــ وهو الحجر الصغير الذى لا يزيد عن مساحة راحة اليد ــ وأن موضع الأرض كان فى مكان بيت المقدس ، ثم أصعد الله منه الدخان . وخلق منه السموات فليس لك أن تقول ان ذلك قد يكون وهما أو رجما بغيب لا يعلمه الا الله ، بل لك ان تذكر قوله تعالى : « ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » وقوله سبحانه « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا »

الاستواء الى السماء ..

الاستواء معناه الاستقامة والاعتدال .

تقول استوى العود . بمعنى استقام واعتدل ، ثم قيل استوى فلان الى فلان كالسهم المرسل . بمعنى قصده فى استواء ، واتجه اليه دون ابطاء .

وقد فسر قوله تعالى : « ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات » بمعنى أنه قصد الى السماء بمشيئته وارادته . بعد ان خلق ما فى الأرض . من غير ان تتعلق ارادته فيما بين ذلك بخلق شىء آخر .

والذى ألجأ المفسرين الى هذا التفسير هو تنزيه الله سبحانه عن أن يكون جسما يحتاج الى مكان ، فانه ـ جل شأنه ـ مخالف للمحدثات منزه عن الأمكنة والجهات ، ولو كان له مكان لكان وجود المكان ـ كما قدمنا ـ سابقا لوجوده ، ولكان لهذا المكان موجد غيره ، وهو الموجد لكل موجود سواه . والأول الذى لم يسبق بعدم أو وجود قبل وجوده .

وهكذا يجب ان نضع فى أذهاننا دائما أنه ـ سبحانه ـ مخالف لنا ولأمثالنا من المحدثات ، وأن نفسر كلامه بما ينفى عن ذاته شبهة المشابهة لغيره ، فانه ـ تعالى ـ « ليس كمثله شىء » « ولم يكن له كفوا أحد » .

تسوية السموات

تفسر التسوية بمعنى التعديل . والتقويم . واتمام الخلق

تقول : سويت المعوج فاستوى . أى عدلته فاعتدل واستقام وصار سليما قويما .

وتقول : رزقك الله ولدا سويا ، أى لا داء به . ولا عيب فيه ، بل كامل الخلق . تام التكوين .

وعلى هذا فسرت تسوية السموات فى قول الله : « ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات » بتعديل خلقهن ، وتقويمه واتمامه بحيث لا يرى فيهن عوج ونتوء ، ولا شق . ولا فتق ، وهذا ما تصرح به آيات كثيرة فى مواطن أخرى من القرآن مثل : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » ومثل « الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » .

أما كيف خلق الله السماء سبع سموات فتذكر ما ذكرناه قريبا من قوله تعالى « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض » .

وأما أمكنة هذه السموات السبع فلا يزال العقل يحاول الصعود الى القمر وهو ذرة من ملايين الكواكب والنجوم التى تتألق فى هذه السماء التى نراها ، وهى كما يقول الله « السماء الدنيا » ويقول فيها « انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد ، لا يسمعون الى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب » .

يمكن أن يقال

.. ويمكن أن يقال ـ كما قيل : أن المراد بالسماء فى قوله تعالى « ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات » هو الاجرام العلوية أو جهات العلو . اعتمادا على أن كل ما علا فهو سماء .

ويمكن أن يقـال : ان هذه السماء التى تحيط بهـذه الارض يصح تعددها بتعدد ما يقابلها من الأماكن والمواطن والمناخ ، كما يقـال سماء الشرق صافية ،وسماء الغرب ملبدة بالغيوم ، وكما يقال سماء القاهرة · وسماء لندن · وهكذا ·

ولكن · خير من ذلك كله أن نكل علم السموات السبع ـ الى الذى خلقهن ، أو عـلى الاقل نقف منهن موقف المتـلبث المتريث فى انتظار ما ستسفر عنه البحوث العلمية من حقائق لا تقبل المناقشة والتأويل ··

أما المبادرة بالحكم قبل أن تتوافر لدينا وسائل الحكم السليم فليس من الأمانة العلمية ، ولا من أدب الدين فى شىء ··

ولعل فى ختم الآية بقوله تعالى « وهو بكل شىء عليم » ما يشـعر الانسان بقيمه نفسه أمام من لا يخفى عليه شىء فى الارض ولا فى السماء ولايعجز عن شىء فى هذا العالم·ولا فيما وراءه من عوالم ، لانه ـ سبحانه ـ رب العالمين ·

واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم مالا تعلمون(٣٠) وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين (٣١) قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم (٣٢) قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون (٣٣) ٠

قصة ادم ..

الانسان ..

«واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم مالا تعلمون ... »

أشرنا فيما سبق الى هذه النعمة التى آثر الله بها الانسان على غيره من الملائكة والجن وغيرهما ، وهى استخلافه فى الأرض لتعميرها . واستثمارها ،والانتفاع بما خلق الله له فيها ، والتسلط عليها ، والتصرف فى موادها بما يجعلها صالحة لتلبية رغباته واشباع حاجاته .

وهذه الآية وما يليها تعرض علينا جانبا من قصة طويلة يجمل بنا قبل الخوض فيها أن نعرف القارىء بثلاثة أنواع من الخلائق يمثلون أشخاصها ولكل منهم دور فيها .

ولنبدأ الآن بالانسان وان كان متأخرا فى الخلق عن الملائكة والجن ، لأن الحديث عنه واليه ، ولأن سياق الكلام لانكار كفره بالله مع ما يتقلب فيه من نعم سابغة تستوجب أن يذكرها ويشكرها ويحمد الله عليها ..

لقد خلق الله آدم ـ وهو أبو البشر ـ من طين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، فسرى الدم فى أعضائه ، وجميع أجزائه ، وصار كما نرى جسما يتكون من عظم ولحم وشحم وعصب وقلب يخفق ، ولسان ينطق وعقل يفكر ويدبر ، و . و . ثم خلق منه زوجة ليسكن اليها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء .. وكان منهما أنا . وأنت . وكل من يصدق عليه اسم انسان .

الملائكة

رجعت الى كلمة الملائكة فى موضعها من كتب اللغة ، لأفهم منها المعنى الذى كان يفهمه العربى الساذج حين نزل القرآن ، فوجدت أصلها « ألوكه » بضم الهمزة ، أو « مألكة » بتسكين الهمزة وضم اللام ، ومعناها « الرسالة » وعرفت من هذا أن هذا الجنس من خلق الله سمى ملائكة لأنهم يحملون رسالات ربهم ، ويبلغون شرائعه الى الأنبياء فى الأرض ، لأن الانسان بحكم تكوينه لا ينهض به استعداده لتلقى أوامر الله مباشرة .

ودون وسيط أقوى ، « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب · أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء » ·

وأكثر المسلمين كما جاء فى تفسير البيضـــاوى على أنهـــم أجسام لطيفة ·· قادرة على التشـــكل بأشـكال مختلفة ، ودليلهم على ذلك أن الانبياء كانوا يرونهم كذلك ·

ويقول الشيخ مخلوف فى كتابه « صفوة البيان » انهم جند من خلق الله · ركز فيهم العقل والفهم ، وفطرهم على الطاعة ، وأقدرهم على التشكل بأشكال مختلفة ، وعلى الأعمال العظيمة الشاقة ·

وقد وصفهم القرآن بأنهم « يسبحون الليل والنهـار لا يفترون » وأنهم « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » وجاء على ألسنتهم فى مناجاتهم لله ، واستشرافهم لمعرفة الحكمة فى جعل آدم خليفة ـ ما يدل على أنهم مجبولون على الطاعة والتسبيح بحمـــد الله ، والتقديس لذاته ، اذ قالوا « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » ·

من الغيب

لعلك لم تنس ماذكرناه فى قوله تعالى : «الذين يؤمنون بالغيب» ولم يساورك الشك فى الايمان بالملائكة، فانهم مما لاتقع أعيننا على حقيقة أجسامهم ، وكل ما يقال فى هذا قد يكون مجرد تخيل أو وهم · ان لم يكن رجما بالغيب ·

فقد نقل عن الحكماء أن الملائكة جواهر مجردة ، تختلف حقيقتها عن حقيقة النفوس الناطقة ، ولم ينقـل عنهم ما يكشف عن حقيقة هـــذه الجواهر ·

وورد عن غيرهم أنها خلقت من نور ، ولا أذكر فى القرآن ما يدل على ذلك أو يشير اليه ، وانما ذكر أن الانسان خلق من طين · وأن الجان خلق من نار «ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون · والجان خلقنا ءمن قبل من نار السموم» ·

على أى حال · ومهمـــا يكن من شىء فان الايمان بالملائكة وبكـل الأوصاف التى وصفهم الله بها ، والوظائف التى يؤدونها بأمره تعـــالى واجب لايتم الايمـــان بدونه ، بل لايكون ايمان الا به ، فان الشرائع السماوية كلها تلاقت على تقرير هذه الحقيقة ، وصريح القرآن يقطع بكفر من يشك فى وجودهم « من كان عدوا لله وملائكته ورسـلـه · وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين » ·

يقول فضيلة المرحوم الاستاذ عبد الوهاب النجار فى كتابه «قصص الأنبياء» ان اعتقاد وجودهم واجب ، وهو من الامور السمعية التى لايوجبها

العقل ، ولكن المعصوم صلى الله عليه وسلم أخبر بوجودهم ، وجاء فى الكتاب الكريم وفى الكتب السماوية أسماء بعضهم ، فوجب أن نعتقد وجودهم لانهم ذكروا بنص قاطع الثبوت والدلالة ٠

الجن ٠٠

وما يقال فى الملائكة يقال فى الجن من حيث ان الايمان بهم من الايمان بالغيب ، فهو يعتمد على الايمان بالله ، وبكتبه وبكل ما جاء فيها ، وقد ورد اسم الجن والجان فى القرآن اثنتين وثلاثين مرة ، كما ورد فى كتب الأنبياء وفى الانجيل بلفظ جن وجان ٠٠ وابليس وشيطان وشياطين ٠

وكلمة الجن كما سبق تدل على الستر والخفاء ، ويلحظ ذلك فى تسمية الولد ببطن أمه جنينا ، وفى قولهم جن علينا الليل بمعنى سترنا وأخفانا ، وقد سمى هذا الجنس من الخلق جنا لذلك ٠ أى لانهم مستورون عنا « انه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم» ٠

ومن الجن المسلم وغير المسلم ، والمؤمن والكافر ٠ والبار والفاجر ، كما يستفاد من قول الله على لسانهم فى سورة الجن « وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون » وقوله « وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » وقد أمرنا أن نستعيذ بالله من شر بعضهم «قل أعوذ برب الناس ملك الناس اله الناس ٠ من شر الوسواس الخناس ٠ الذى يوسوس فى صدور الناس ٠ من الجنة والناس» ٠

وهم على قوتهم وقدرتهم ، وتمكنهم من سرعة الانتقال والتشكل بمختلف الاشكال لايعلمون الغيب كما يستفاد من قوله تعالى على لسانهم « وأنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم اراد بهم ربهم رشدا » ، وقوله يحكى قصتهم مع سليمان « فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين» وقوله تعالى «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول» ٠

وهم كذلك يتوالدون ويتكاثرون بالتناسل كما يفهم من قوله تعالى فى ابليس وهو من الجن «أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو » ٠

ان الحديث عن الجن طويل لايستوفيه كتاب ، ونحن بصددالتعريف بأبطال القصة التى بدأنا نرى جانبا منها وسنبدؤها من أولها ٠٠

تمهيد ٠٠

لم يذكر القرآن الكريم أول من سكن هذه الأرض ، ولا متى صلحت لسكنى الانسان بعد انفصالها عن الشمس كما يقال ، أو بعد انفصالها

عن السموات كما يفهم من قول الله « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي » ٠

وقد عرفنا أن السموات تطلق على الاجرام العلوية، وعلى كل ماعلا٠ فلا تعارض بين ما يأتي به العلم ، وما أتى به القرآن الكريم ٠

ولم يذكر القرآن كذلك الجنس الذى سبق الجنس البشرى فى استيطان هذه الأرض ، ولكن بعض الكتب والآثار تذكر أن الجن كانوا يسكنونها ، ثم طغوا وبغوا ، وأكثروا فيها الفساد ، فأرسل الله اليهم ابليس ـ قبل أن يطرده من رحمته ـ فى جمع من الملائكة ، فحاربهم ودمرهم وألجأهم الى الجزر النائية ورءوس الجبال ٠

ولو صحت هذه الحكاية أو الرواية لكانت تمهيدا معقولا للقصة وتفسيرا مناسبا لغرور ابليس ٠ وما كان من حسده وحقده على آدم ٠ وقوله لربه وقد أمره بالسجود له «أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين» ٠

تكريم آدم بالخلافة :

حفل تكريم ٠٠

خلق الله آدم كما قدمنا من أديم هذه الأرض ٠٠

من طين متغير جف وخف ، حتى صار صلصالا تسمع له صلصلة اذا طرق بجسم آخر أو نقر ٠

ثم سواه ، وأودعه سر الحياة ، فاذا هو ـ كما ترى ـ جسم يحس ويتحرك ، وتمتد فيه الشرايين لتمد خلاياه بالدماء والغذاء ، وتتجاوب جميع أعضائه بالألم اذا مسه ألم ، وتتعاون جميع أجهزته الهضمية والعصبية والعظمية على مايقويه وينميه ، واذا هو ـ كما ترى ـ عينان تلتقطان صور ماتقعان عليه أو يقع عليهما ، وعقل يستعرض على ساحة الذهن شريط هذه الصور ٠ ليتغذى هو الآخر بما فيها من أفكار وعبر ٠ وأنف ولسان مزودان بجهازين لتميز الروائح والطعوم ، وشفتان تنفرجان وتنطبقان لاخراج الكلام ، وتلقى الماء والطعام ٠٠ و ٠٠٠ و ٠٠٠ الى آخر ماينطوى عليه هذا العالم الذى يقول فيه الشاعر :

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

كل هذا من طين هذه الأرض ، حتى أنا ، وأنت ، وكل رجل وامرأة ٠٠ فان كل غذاء نضعه داخل أفواهنا ليتحول فى أجسامنا الى دم ولحم وعظم انما هو من طين هذه الأرض ٠

أفليس من المناسب أن يتلقى الملائكة أول انسان خلق هذا الخلق العجيب بحفل تكريم ؟ ٠

السجود لآدم ..

كان حفل التكريم الذى أقيم لآدم هو اجتماع الملائكة أمامه أو من حوله ، ثم السجود له اذ سواه الله وأحيـــاه « اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من ضين ، فاذا سويته ونفخت فيـــه من روحى فقعـــوا له ساجدين » .

ولم يكن السجود الذى أمرهم الله به سجود عبادة وتعظيم ، وانما كان سجود تقدير وتكريم .. فان معنى السجود ليس مقصورا عـــلى وضع الجبهة فوق الأرض بالصور التى نؤديها ، ونبدو فيها أمام الله فى أثناء الصلاة ، بل هو فى اللغة أوسع من ذلك ، وان كان من معـــانيه ذلك ..

فقد كان يقال سجد فلان بمعنى خضع ، وسجد بمعنى طأطأ رأسه وشجر ساجد أى مائل . والسفينة تسجد للرياح بمعنى تطيعها وتميل معها .

ولكن بعض من يجهلون لغة العرب ، ويحتالون للطعن فى الاسلام، التمسوا فى هذه العبارة منفذا للتشهير به ، والتشكيك فيـــه ، فراحوا يتساءلون : كيف يمنع الاسلام السجود لغير الله ويصرح القرآن بأن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم ؟

وهذه ـ كما ترى ـ شبهة تنهار ، ولا تثبت أمام انظار من يفهمون لغة العرب ، ويرددون ليل نهار كلمة «لااله الا الله» ، ويرون فيهـــا الشعار الذى يأبى لعزتهم أن تذل ، ولكرامتهم أن تهون ، ولجباههم أن تسجد لغير من خلقهم .

داء الحسد

وقف الملائكة ينظرون ..

أمامهم تمثال من صلصال كان الى حين قطعة من طين ..

انه جسم هامد جامد ، لايرف ولا يشف . ولا يهمس ولا ينبس . ولا يحس ، ولا يسمع ، ولا يرى .

ثم نفخ الله فيه من روحه فاذا هو حى تنبض كل خلية فيه بالحياة يشع الضياء من عينيه ، ويتألق فى أساريره ، يخفق قلبه وينطق لسانه تتحرك أجهزته كلها وتعمل فى انتظام تام .

وأخذتهم روعة القدرة الالهية ، وبهرتهم صفة الحكيم العليم . فخروا له ساجدين الا واحدا كان هو النشاز فى هذا النظام .

كان يفكر فى نفسه ، وفيما صار اليه فى يومه ، وما كان عليه فى

أمسه ، وتحرك في صدره داء الحسد ، واشتعلت فيه نار الغيرة ، وركبه الغرور فأبى أن يكون مع الساجدين ·

وسأله الله « مامنعك أن تكون مع الساجدين ·· ؟ » فأجاب فى حنق مكتوم : لم أكن لأسجد لبشر قد « خلقتنى من نار وخلقته من طين » ·

وحقت عليه اللعنة ، وطرد من رحمة الله ·

انه الحسد ، انه ابليس ·

جناية الغرور

لم يكن ابليس بالجاهل الخامل حتى ينكر الله ويكفر بوجوده ، كما يفعل بعض من لايعرفون غير قصص الميوعة والخلاعة ، وانما كان عالما يعبد الله ، ويشهد آثار قدرته ، ومظاهر رحمته ، ويعتقد أنه هو الذى خلقه ومنحه ماكان يتمتع به من قوة وشهرة ، وأنه له الخلق والأمر ، وبيده ملكوت السموات والارض ·

كل مافى الأمر أنه اغتر ، ورأى فى أصله مايحمله على الغرور والكبر ، فأبى ـ وقد خلق من نار ـ أن يسجد لبشر خلق من طين ، ورأى فى ذلك ظلما لنفسه ، وهضما لحقه ، ثم تمادى به الضلال والجهل حين سأله ربه : مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى » فقال « أنا خير منه » وأعماه الحقد والحسد والغرور ·· فلم يذكر أنه ـ بذلك ـ نسب الى الله الظلم ، والجور فى الحكم ، ونسى أن من يتصرف فيما يملك لاينسب اليه ظلم ، وأن أصله الذى يعتز بشرف الانتماء اليه لايرفعه الى درجة تبيح له العصيان والتمرد على من خلقه وخلق أصله ، بل ان شرف الأصل وهو انه لا مدخل لهما فى تقدير الخلق عند الحق ·

هذا اذا كانت النار ـ كما توهم ابليس ـ خيرا من الطين ، فاذا كان الطين خيرا منها ، لأن الحياة وعناصر الحياة ، وجمال الحياة ، ترجع اليه ، كان خطأ ابليس فى تقديره يتركب من أخطاء : الغرور وسوء التقدير ، وعصيان أمر الله ·

ومن ثم حقت عليه اللعنة والطرد ، وأحاطت به خطيئته ، فلم يسأل الله أن يغفر له ذنبه ، ولم يندم على ماكان منه، بل سأله أن ينظره ويؤخر عقابه ، فلما استجاب له قال «فبعزتك لأغوينهم أجمعين» ·

وقصد بذلك بنى آدم ، لأن أباهم كان سبب الحقد الذى اشتعل فى صدره ، واللعنة التى وقعت عليه ·

الاغواء ·· والاغراء ··

كان أول ماافاه به ابليس بعد أن أنظره الله ، وأخر عقابه هو قوله فى بنى آدم «فبعزتك لأغوينهم أجمعين» ثم ذكر أنه سيأتيهم من كل جهة

ليزلهم عن طريق الحق ، ويضلهم عن سواء السبيل ، فقال ما يحكيه القرآن «لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين» ٠

والمتأمل فى قسمه بعزة الله يدرك ماكان ينطوى عليه ، ويصرح به من الايمان بأنه ـ جل شأنه ـ عزيز لايذل ، غالب لايقهر ، قوى لايضعف قادر لايعجز ٠٠ كما يدرك ماكان يعتمل فى صدره من شعور تمتزج فيه مرارة الخيبة بحرارة الحقد على آدم وبنيه ٠

وكان الاجراء الذى قرر أن يتخذه لينفس به عن كربه وحقده هو الاغراء والاغواء ٠

يزين لهم القبائح ليقدموا عليها ، ويحسن لهم المفاسد ليقعوا فيها «يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا» ، وله من براعة الحيلة ومما ركز فى طبيعة الانسان من الشهوات وغرائز «الأنانية» والطمع وحب الاستعلاء ، مايساعده على تحقيق مراده منه ، بتبديل أمنه خوفا وسلمه حربا ، وطاعته لربه عصيانا أو نسيانا ٠

الانسان الثانى

كانت حواء هى الانسان الثانى فى تاريخ وجود البشر ٠

وكان خلقها تلبية لحاجة ملحة ، واستجابة لشوق طاغ تحرك بهما احساس آدم ٠

انه وحيد غريب ، تمتلىء عيناه بروائع خلق الله ، وبدائع مصنوعاته ولكنه مع ذلك يحس فى أعماق نفسه بفراغ موحش ٠

انه يشعر بنزوع خفى الى شىء خفى تكمل به نفسه ، وتجمل به حياته ، وينبت فيه فرعه ، ويبقى به نوعه ٠

انه يحس الحاجة الى حنان يلطف جوه ، والى قلب يبادله الحب والود والرحمة ٠٠ الى شريك يعرفه ويألفه، ويجد فى حياته معه كل هذه المعانى والأمانى ٠٠

وأتم الله عليه نعمته ، وخلق منه زوجه ٠

لم يذكر القرآن من أى مادة خلقت حواء ، وانما ذكر أن الله خلقنا من نفس واحدة «وخلق منها زوجها» فقال كثير من العلماء فى تفسير ذلك: ان الله أخذ ضلعا من أضلاع آدم وهو نائم ، وخلق منها حواء ، وقال آخرون من المحتمل أن يكون المراد من قوله تعالى «وخلق منها زوجها» أنه خلقها من جنس آدم وعلى صورته مع اختلاف النوع بالطبع ٠

على أى حال ، لقد خلق الله المرأة نعمة ، لانقمة ، وجعلها من آياته فقال : «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة» ٠

آدم وحواء

... وأمر الله آدم أن يسكن هو وزوجه الجنة .

وقد اختلف العلماء فيها ، أهى الجنة التى وعد بها المتقون فى الآخرة أم هى جنة من جنات هذه الدنيا .. ؟ وليس من غرضنا الخوض فى تفصيل ماقيل ، وعرض الأدلة التى استند اليها كل فريق ، فان الاتفاق منعقد على أن آدم وزوجه سكنا الجنة ، وأخذا يتنقلان فى نواحيها ، ويستمتعان بكل مافيها من وسائل النعيم والسعة والدعة ، ويجدان بها كل ماتطيب به الحياة .

لقد أباح الله لهما التنقل حيثما يريدان ، وأن يأكلا منها كل ماكانا يشتهيان ، وأن ينعما فى ظلالها الناعمة ، وأجوائها الباسمة ، بما يحبان من ألوان النعيم .

شىء واحد نهاهما عن القرب منه .

شجرة واحدة من بين الكثير الكثيف الملتف من الأشجار وجه نظرهما اليها ، فقال : « ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » .

ولكن حسيس ابليس بدأ يهمس ويوسوس ، ويغرى شوقهما بهذه الشجرة المحرمة ، واستعان الماكر الماهر بما ركز فى طبع الانسان من الميل الى ماينهى عنه أو يمنع منه ، فأحال شوقهما اليها حبا وغراما وقال : « هل أدلكما على شجرة الخلد وملك لايبلى » .

الشجرة المحرمة

وكأنما كان ابليس يعلم ـ كذلك ـ مافى طبيعة الانسان من غريزة حب البقاء ، والحرص عليه ، والتشبث به .

وكأنما كان يعرف مافطر عليه آدم وبنوه من حب التملك والرغبة فى تجديد مابطول به ألفه ، ويتكرر أمام عينيه مرآه ، ومن ثم أيقظ فيه الشوق الى مامنع منه ونهى عنه ، وأطل من نافذة دهائه لاغرائه واغوائه، فلوح له بلواء الخلد ، وتاج الملك ، ومناه بنعيم لا تبلى جدته على الأيام ، وقال «ياآدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى» .

وما زال به يغريه ، ويستهويه ، ويثير الشوق الى المحرم فيه ، حتى انطلى الزور عليه ، فقال له ولزوجه «مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين» .

وبدأ العدو الكاشح فى صورة الصديق الناصح «وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين» وما زال بهما يلاينهما ويداهنهما حتى نسيا فى نشوة المغريات أمر ربهما ، وانهار عزمهما ، فأكلا من الشجرة ، وسرعان ماأحسا

العرى والخزى «فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهمـــا من ورق الجنة » ٠

وقد اختلف المفسرون فى أنّ الشّجرة المحرمة شجرة الحنطـــة أو التينة أو الكرمة ، وقيل غير ذلك ، ولكن القرآن لم يعين ، ولا حاجة بنا الى التعيين ٠

الى الأرض ٠٠

نجح الماكر الماهر فى مكيدته لآدم ٠

وكسب الجولة الأولى ، فسجل عليه أول خطأ وقع فيه الانسان ٠٠ ورأى آدم من نفسه ومن زوجه ، كما رأت حواء من نفسها ومن زوْجهـــا مايسوء وينوء ٠

لقد كان له فى الجنة كما قال له ربه « ان لك ألا تجوع فيهـا ولا تعرى ، وأنك لاتظمأ فيها ولا تضحى» وهاهما ذان يحسان العرى والخزى من العرى ، ويلتمسان فى الشجر مايسترهما ، ويشعران بالحـــــاجة الملحة الى رداء وغطاء ، فأخذا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، ينتزعان الأوراق ، ويضعانها فوق ماظهر من سوءاتهما ٠

«وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين» ٠

وأجابا فى حسرة وألم وندم : «ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » ٠

ولكن أمر الله كان قد قضى ، ولا معقب لأمره ، فحكم عليهما بالخروج من الجنة الى الأرض ، وقال : «اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين» ٠

ثم كان مالابد أن يكون ٠

كان ماسبق به القضاء ، وجرى به القلم ، وأخبر الله به الملائـكة حين قال : «انى جاعل فى الارض خليفة» ٠

نعمة ٠٠ أم نقمة ؟

قد يلتبس على القارىء أمر خروج آدم وزوجه من الجنة ٠

فقد ذكر على أنه نعمة تستوجب الشكر بدل الكفر ، حيث يقول الله «واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال انى أعلم مالاتعلمون» ٠

وذكر على أنه نقمة حلت عليه وعلى زوجه بسبب انقيادهما للشيطان ، ووقوعهما فى معصية الله ، وذلك حيث يقول الله : « فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه : وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين» ٠

ولكن هذا اللبس يزول بعد التأمل القليل ٠٠ فان خروج آدم من الجنة لايقتضى نفى مزية ايثاره على غيره بالخلافة فى الارض ، ولا يسلبه ـ مع ماسلبه من نعيم الجنة ـ الخصائص التى تؤهله لهذه الوظيفة ٠٠ وتفضله على غيره ٠

ولعل هذا يمكن استخلاصه من قوله تعالى : «فعصى آدم ربه فغوى، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى» ٠

فان معنى اجتباه اختاره ، وقد تاب وأناب فقبل الله توبته واجتباه وهداه ٠٠

الخلافة فى الأرض ٠٠

الخليفة هو من يخلف غيره ، وينوب منابه ٠

يقال خلف فلان فلانا بمعنى جاء بعده ، وخلفه على أهله ٠ أى قام بينهم مقامه ٠

وقد فهم من كلمة «خليفة» فى قول الله للملائكته «انى جاعل فى الأرض خليفة » انه آدم عليه السلام ، لأنه ولأن كل نبى بعده استخلفهم الله فى الارض لعمارتها ، وسياسة الناس فيها ، وتنفيذ أمره فيهم ، لا لأنه محتاج الى من ينوب عنه ، بل لانهم ـ بحكم مافطروا عليه من قصور وضعف ـ لايستطيعون أن يتلقوا أمره مباشرة ، ودون وسيط يعرفونه ويألفونه ، فكان من رحمة الله وحكمته أن يجعل النبى المرسل رجلا من البشر كما يشير الى ذلك قوله سبحانه : « ولو جعلنا ملكا لجعلناه رجلا » ٠

ومنهم من فهم من كلمة « خليفة » أنه هو هذا الخلق من بنى آدم، بمعنى أنهم يخلفون خلقا آخر كان يستوطن هذه الارض قبلهم ٠

واطلاق اسم الرجل على نجله وعلى كل من يوجد من نسله معروف مألوف فى استعمال العرب ، فكان يقال : مضر ، ويراد قبيلته ، وربيعة ويراد أبناؤه ، وتغلب ويراد ذريته ٠

أما من الذى يخلفه آدم فى الارض فقد فسر بمن كان يسكنها قبله لان القرآن لم يعينه ، وليس مع هذا الاحتمال مرجع من استدلال ، ولا مانع من العموم ٠

التسبيح والتقديس

التسبيح هو تنزيه الله تعالى عن كل مالايليق به ولا يتفق مع تمام جلاله وجماله وكماله ٠

وكلمة «سبحان الله» من الكلمات الدائرة على لسان كل مسلم ، ولكنهم أو أكثرهم لايستحضرون معناها وهم يرددونها حين يمسون وحين يصبحون ، وفيما بين ذلك من آناء الليل وأطراف النهار ٠

ومعناها أنه ـ جل شأنه ـ فوق أن ترقى اليه شبهة عيب أو نقص أو شبهة المشابهة لغيره من المخلوقات ، لانها لاتخلو من عيب أو نقص ، حتى الولد الذى يشعر الوالد بالحاجة اليه ويراه تكميلا وتجميلا لحياته هو بالنسبة اليه سبحانه عيب لايليق به ٠

ومن ثم نجد قوله تعالى : «سبحانه أن يكون له ولد»ونجد تعليل ذلك فى قوله تعالى بعد ذلك : « له ما فى السموات والأرض » ٠

والتقديس هو التطهير ، والمقدس هو المطهر من كل ذنب وعيب ، والارض المقدسة هى المطهرة ٠

فاذكر ذلك لتستحضره حين تقول سبحان الله عقب كل صلاة وحين ركوعك ، وسجودك فى أثناء الصلاة ، ثم لتفهم قول الملائكة لربهم « ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » ٠

تشوف ٠٠ لااعتراض

أخبر الله ملائكته أنه سيجعل آدم ، أو هذا الخلق من بنى آدم ٠٠٠ خليفة فى الارض ٠

وكانوا يعلمون مافى طبيعة هذا الجنس من ميول وغرائز ستنحرف به عن طريق الحق والخير الى طريق الباطل والشر ، وتقوده الى اقتراف المعاصى ، وسفك الدماء ، والافساد فى الارض ، ويرون انفسهم قد جبلوا على الخير المحض ، وفطروا على عبادة الله ، والتسبيح المقترن بحمده والتقديس لذاته وامتثال أمره ، فكيف يكون لآدم ـ دونهم ـ هذا التكريم والاختيار والايثار بالخلافة فى هذه الأرض ؟

وكأنما وقع فى اخلادهم أنهم خير منه ، ولكنهم لم يتمردوا على أمر الله كما فعل ابليس وقال : «لم أكن لأسجد لبشر خلقتنى من نار وخلقته من طين» ، وانما تشوفوا الى معرفة الحكمة فى ايثاره بالخلافة ، واستشرفوا لبيان من الحكيم العليم يكشف به السر ، ويظهر به الأمر ، فقالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك» ٠

وكان جوابه ـ سبحانه ـ انه يعلم من أمره كما يعلم من أمر غيره

مالايعلمون من الخصائص التى تفضله عليهم فيما وكل اليه ، وتؤهله دونهم لوظيفة الخلافة فى الارض ·

ثم فصل بالتجربة العملية ماأجمل بالكلام ، فازداد ايمانهم واذعانهم وقالوا « سبحانك لاعلم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم » ·

هذه هى الحكمة ··

الحكمة وضع الشىء فى موضعه ··

ولو وكل الى الملائكة أمر الخلافة فى الارض لكان ذلك خلاف الحكمة ولظلت هذه الأرض خرابا يبابا حتى الآن ·

الملائكة لايحسون الحاجة الى الغذاء ، فلا داعى ـ مثلا ـ لزراعة القمح والفول ، والذرة ، والأرز · وما الى ذلك ·

الملائكة لايحتاجون الى ثياب تقيهم الحر والبرد ، فلا داعى لصناعة الثياب وزراعة ماتصنع منه الثياب ، كالقطن والكتان ، وتربية ما تتخذ من صوفه ووبره الثياب كالابل والأغنام ·

الملائكة لايحتاجون الى منازل تؤويهم ، وقلاع تحميهم ، فلا داعى لبناء الدور والقصور ، وتشييد القلاع والحصون ، ولا الى ما يلزم لذلك من فنون الهندسة والعمار ·

الملائكة يقطعون الابعاد البعيدة فى لمح البصر ، فلا داعى للسيارات والقاطرات ، والطائرات ، والباخرات ، والغواصات ·

لا ·· أيها الأبرار الأخيار الأطهار من الملائكة ·

ان هذه الارض لهذا الانسان ·

انه خلق منها ، ولا تنقضى حاجته اليها ، ولا ينقطع عمله فيها ، لتوفير وسائل اشباع حاجته ·

ومن ثم كان من الحكمة أنه هو الذى يعمرها ، ويستثمرها ، ويكون خليفة فيها ·

من الارض والسماء ··

قد يقول قائل اذا كان الانسان من هذه الأرض ، وكانت حاجته الدائمة المتجددة تدفعه الى تثميرها ، وتعميرها ، والتصرف فى مواردها بما يجعلها ملائمة لرغباته ومآربه ، فكيف يخطر ببال أن تقوم بينه وبين الملائكة مقارنة أو موازنة ؟

والجواب أنه بمادته من الارض . وبروحه من السماء ، كما يرشد الى ذلك قول الله : «فاذا سويته ونفخت فيه من روحى» ، ففيه ما يرفعه الى آفاق السمو النفسى ، وفيه مايجذبه الى أعماق الهبوط الحسى ، وهو لذلك يجد نفسيه فى صراع قائم ، ونزاع دائم بين مطالب الروح ومطالب البدن ، ويسعى لاقامة التوازن بينهما على الوجه الذى يلتمس فيه رضوان الله ، وراحة ضميره وشعوره .

أما الملائكة فلا يجدون عناء فى طاعة الله ، لانهم مجبولون عليها ، ولا يشقون بين هذه الدوافع المتعارضة ، والنوازع المتناقضة ، ولهذا يرى بعض العلماء أن الجنس الآدمى أفضل منهم ، ويرى آخرون عكس ذلك بدليل أن أبليس منى آدم وزوجه برتبة أعلى فقال : «مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين» وأن صواحب يوسف مدحنه بقولهن : «ماهذا بشرا ان هذا الا ملك كريم» .

وهناك فريق من العلماء يرى أن عموم الملائكة أفضل من عموم البشر ، وان خواص البشر كالأنبياء أفضل من خواص الملائكة .

وعندى أن الاستشهاد بابليس وصواحب يوسف لايعول عليه وانه - مع ذلك - لاداعى للمفاضلة ولا جدوى من ورائها .

حيوان ناطق

أشرنا الى أن الحاجات المتعددة المتجددة اللازمة الدائمة التى يشعر بها الانسان ، هى التى تحفزه الى العمل الدائم ، والسعى المتواصل لتوفير وسائل اشباعها ، وانها هى التى تدفعه الى تعمير الارض وتثمير ما يقع بين يديه من موادها وخاماتها ، سواء عن طريق تصنيعها ، أو تلقيحها بغيرها ، أو اشراكها مع العناصر التى تسهم فى تكوين الانتاج العام .

ونتيجة ذلك كله هى هذا العمران ، وهذه الاشياء الكثيرة التى نجد أنفسنا مضطرين الى وضع أسماء لها تدل عليها ، وتميزها عن غيرها فى مجال التداول والتعامل .

ومن ثم كان من حكمة الله ورحمته بالانسان أن يهب له نعمةالقدرة على النطق أو الكلام ، وتسمية الأشياء بما يدل عليها من أسماء ، بل كان من تمام حقيقة الانسان التفكير والتعبير عن التفكير بالألفاظ ، وهى أصوات تتكون من الحروف الهجائية ، ولهذا قيل فى تعريفه انه « حيوان ناطق » وأريد من كلمة ناطق : المفكر بالعقل ، والمعبر عن فكره باللسان .

اذا لاحظت ذلك ولاحظت ماذكرناه عن الملائكة من أنهم لايشعرون بما يشعر به الانسان من حاجات متجددة ، ولا يندفعون الى العمل والانتاج بالرغبة أو الحاجة التى تدفع الانسان الى العمل والانتاج ، ولا

يحتاجون الى معرفة خواص مايجدون من أشياء ولا الى معرفة مايدل عليها من أسماء ، أمكنك أن تستشف من الآن نتيجة الامتحان الذى دخلوه مع أول انسان ، وهو آدم عليه السلام ·

الامتحان ··

« وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى هؤلاء ان كنتم صادقين » ·

أراد الله أن يكشف للملائكة بالفعل ، لابمجرد القول ان آدم وبنيه أجدر بالخلافة فى الارض منهم ، وأقدر على تثميرها وتعميرها ، فعلمه أسماء ماحوله من الأشياء ·

والتعليم فعل يترتب عليه العلم ، فلا يعنينا أن يكون بالهام يقع فى الروع ، أو بكلام يلقى فى السمع، أو يكون نتيجة الاستعداد الفطرى ·

على أى حال لقد علم الله آدم الأسماء التى تدل على مايجد من أشياء ثم عرض هذه الأشياء على الملائكة وأمرهم بذكر أسمائها ان كانوا صادقين فى أنهم أحق بالخلافة منه ، أو فى أن خلق الانسان مع مافيه من غرائز تنحرف به الى الشر والفساد وسفك الدماء لا يؤهله لوظيفة الخلافة فى الارض ·

وكأنما أراد الله ــ وهو أعلم بمراده ــ أن يخبر الملائكة على هذه الصورة بأنه خلق فى الجنس البشرى استعدادا لم يخلقه فيهم ، وزوده بمواهب عقلية ونفسية وحسية تمده بروافد العلم والمعرفة ، وترقى به فى مدارج السمو والكمال ، أو كما يقول البيضاوى فى تفسيره : خلقه مستعدا لادراك أنواع المدركات من المعقولات والمحسوسات والمتخيلات والموهومات ، وألهمه معرفة ذوات الأشياء وخواصها وأسمائها ، وأصول العلوم وقوانين الصناعات وكيفية آلاتها ·

أى أسماء ·· ؟

فهم بعض الناس من كلمة «كلها» فى قوله تعالى «وعلم آدم الاسماء كلها » أنه علمه أسماء ما كان ، وما سيكون قبل أن يكون من مختلف أنواع الأشياء التى كان يمتلىء بها سمعه وبصره وحواسه ، والتى لم يقع عليها سمعه وبصره وحواسه ·· ! يعنى أنه كان يعرف المذياع قبل أن يوجد ، ويعرف المسرة قبل أن توجد ، ويعرف أسماء كل هذه الأجهزة الحديثة التى لا نستطيع حصرها ، وحصر أسمائها قبل أن توجد وتوجد معها أو بعدها أسماؤها !

وهذا ــ كما لايخفى ــ يعذر فيه من يقول انه غير معقول أو مقبول

ولعل مثله في ذلك البحث عن اللغة التي استخدمها آدم في التعبير عن الأشياء بما يدل عليها من أسماء أعربية كانت أم عبرية؟ ولم لم تكن هندية أو صينية ، أو أية لغة من هذه اللغات الكثيرة التي جعلها الله من آياته فقال : «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم»

لقد كان آدم قبل أن يكون هؤلاء الناس من مختلف الأجناس ، وتكون لغاتهم ، وكانت الأشياء التي سماها هي الأشياء التي رآها بدليل الاشارة اليها في قوله تعالى : «أنبئوني بأسماء هؤلاء» وأي كلام غير هذا تعسف وتكلف ، وشغل لفراغ الوقت بغير مايفيد ·

الأسماء والمسميات

هل علم الله آدم الأسماء دون المسميات كما ذهب الى ذلك بعض المفسرين ··؟ فقد قال ان التعليم وجب تعلقه بالأسماء لا بالمسميات لقوله تعالى : « أنبئوني بأسماء هؤلاء » وقوله : « فلما أنبأهم بأسمائهم » فانه لم يقل أنبئوني بهؤلاء ·

أو ان الله علم آدم المسميات ، وهي الذوات التي تدل عليها الأسماء كما علمه الأسماء ·

يرى أهل السنة الرأي الثاني ، وأن الاسم هو المسمى ·· ويستدلون على ذلك بقول الله بعد ذلك : «ثم عرضهم» فانه يفهم منه أنه عرض الأشياء ولم يعرض الأسماء ·· ثم ان المهم هو العلم بذوات المسميات والاطلاع على حقائقها ودقائق خواصها وأسرارها ، أما العلم بالأسماء ، دون معرفة ماتدل عليه فلا قيمة له ، ولا فائدة فيه ·

فاذا لوحظ أن كلمة « اسم » باعتبار أصلها ـ وهو الوسم بمعنى السمة والعلامة أو السمو والرفعة ـ يفهم منها أن الاسم ما يكون علامة على الشيء ، ودليلا يرفعه الى الذهن ·· كان تعليم الأسماء يقتضي حتما تعليم المسميات · والا فقد الاسم مفهومه ، والعلم معلومه ·

الاعتراف بالعجز ··

« قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم » ·

انكشف للملائكة ماخفي عليهم من قصورهم وعجزهم عن الاخبار بأسماء الأشياء التي قال الله لهم فيها : « أنبئوني بأسماء هؤلاء » فقالوا « سبحانك لاعلم لنا الا ماعلمتنا انك انت العليم الحكيم » ·

والمتأمل في هذا القول يرى فيه الاقرار بالعجز والاعتذار بأنهم أرادوا مجرد الاستفسار لا الانكار حين قالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك» ·

وتصدير الكلام بكلمة «سبحانك» يشعر بذلك ، وبأكثر من
ولا يخفى على المتأمل دقة موقعها وموضعها ·

سبحانك أن يرقى اليك اعتراض من أحد عليك ·

سبحانك أن يكون فى فعلك أو قولك مايجافى الحكمة أو يخالف الصواب ·

سبحانك أن ينسب اليك ظلم فى ايثارك بعض خلقك على بعض ·

سبحانك أن يعقب على أمرك معقب ، أو يتمرد عليك متمرد ·

سبحانك أن يخفى شىء عن علمك ، أو يخرج شىء عن حكمك ·

وقد عرفت التسبيح بأنه تنزيه الله عما لايليق به ، ومن ثم تدرك ماتنطوى عليه كلمة «سبحانك» من معان لايستوفيها تفصيل ·

ثم ان ختم الجواب بقولهم : «انك أنت العليم الحكيم» تأكيد لما تدل عليه جملة « لاعلم لنا الا ماعلمتنا » من الاقرار بالعجز والجهل ، واعتراف بأنه وحده العليم بكل شىء ، الحكيم فى كل مايصدر عنه من قول وفعل·

آدم يتكلم ··

«قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والارض وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون»·

النبأ هو الخبر ، وأنبأه بكذا أخبره به ·

والغيب كل ماغاب عنك ، وغيب السموات والارض ماخفى فيهما من الأسرار والأخبار مما لا يعلمه الا الله ·

وأبدى الشىء أظهره ، وكتم الحديث أخفاه ·

على ضوء مايفهم من ألفاظ هذه الآية يمكن أن تلمح فيهـــا معانى كثيرة أهمها :

أولا ــ أن الله لم يخبر الملائكة بأسماء هذه الأشياء بعد أن عجزوا عن الاخبار بها ، وانما أمر آدم أن يخبرهم ويفهمهم ويعلمهم كأنه أستاذ أمام تلاميذ ·

ثانيا ــ العتاب الذى تضمنه الخطاب فى قوله تعالى : «ألم أقل لكم ··» كأنما كان الأليق بهم أن يتريثوا حتى يظهر الله لهم ما خفى عليهم من السر فى جعل آدم خليفة ، ولكنهم أسرعوا فقالوا : «أتجعل فيها من يفســـد فيها ويسفك الدماء » ·

ثالثا ــ اظهار شرف العلم على العبادة ، فانه هــو الذى رفع منزلة آدم ووضعه هذا الموضع من الملائكة ، وهم كما يقول الله «يسبحون الليل والنهار لايفترون» ·

عظات وعبر ..

ويمكن أن نستخلص من قصة الملائكة مع آدم علاوة على ماتقدم عدة عبر وعظات أهمها :

أولا ـ وقبل كل شيء تكريم هذا الجنس ـ كما قدمنا ـ بالخلافة في الارض ، وايثاره بها على الملائكة ، وخلق كل ما فيها لمنفعته ، وهذا هو الغرض الذى سيق له الكلام ، وهو ينتظم مع نعمة الاحياء بعد الموت وتوفير كل مقومات الحياة للانسان في هذه الأرض .. في توجيه الأنظار الى أن هذه النعم يجب أن تقابل بما تستحق من الايمان بمن أوجدها .. وشكره عليها .

ثانيا ـ أن عناية الله اذا وجهت الى الشيء الحقير جعلته عظيما .. وأودعت فيه من أسباب الجمال والكمال ما يرتفع به عمن كان يفوقه في نقاء العنصر وصفاء الجوهر ، وبهـــاء المظهر ، كما وجهت الى الطين المتغير فصنعت منه صلصالا ، وسوت منه تمثالا ، وخلقت منه انسانا يتألق بالبشر والذكاء ، ويفوق الملائكة في القدرة على معرفة الأشياء ، ويملك من المواهب العقلية والنفسية والحسية مايفضله عليهم ، ويؤهله للتصرف في الأرض دونهم .

ثالثا ـ ان الله قد يخفي بعض حكمه وأسراره عن أقرب خلقه اليه ، كما أخفى سر استخلاف آدم في الأرض عن ملائكته الأطهار الأخيار .

رابعا ـ انه لا حرج على من يطلب فهم ما خفي عليه فهمـه ، وعلم ماغاب عنه علمه ، وانما الاثم والجرم في مقابلة أمر الله وحكمه بالامتعاض منه . أو الاعتراض عليه ..

النبي والرسول ..

على ذكر النبأ والانباء وآدم عليه السلام يحسن أن نذكر كلمة عن النبي والرسول . والفرق بينهما ، وهل كان آدم نبيا ورسولا . أو كان نبيا غير مرسل ، أو كان مجرد فرد من البشر وان كان أبا البشر .. ؟

قالوا ان كلمة النبي مأخوذة من النبأ . وهو الخبر المفيد لما له شأن مهم ، وأن أصلها النبيء ، ثم خففت بابدال الهمزة ياء . وادغام الياء الأولى في الثانية ، حتى صارت في الرسم ياء واحدة مشددة ، ثم صارت كلمة النبي تطلق على الانسان الذكر الحر الذى أوحى الله اليه بشرع ليعمل به وان لم يأمره بتبليغه ، فان أمره الله بتبليغه فهو رسول ينبئه الله لينبيء الناس عن الله ...

هذا القدر يكفي في اظهار العلاقة بين النبأ والنبيء ، واظهار الفرق بين النبي والرسول ، فالرسول لابد أن يكون نبيـــا ، والنبي قد يكون رسولا ، وقد يكون غير رسول .

وقالوا أيضا ان كلمة النبى مأخوذة من النبوة أو النباوة بفتح النون فيهما · وهو المكان العالى · ويعنون به : الشرف والرفعة ، ولا شك أن وضع النبى بين قومه كوضع الربوة العـــالية الحالية بالعشب والشجر والأزهار والثمار ، فهم يتلقون من الله فيض الوحى كما يتلقى الربوة من السماء فيض الغيث فتهتز · وتزهر · وتثمر ·

هل كان آدم نبيا ·· ؟

يقول فضيلة المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه « قصص الأنبياء » ان القرآن الكريم لم يذكر لفظ النبوة بازاء آدم كما ذكر ذلك بازاء غيره من الأنبيـــاء ، كاسماعيل · وابراهيم · وموسى · وعيسى · وغيرهم ، ولكن ذكر أن الله خاطبه بلا واسطة ، وشرع له فى ذلك الخطاب ، فأمره ونهاه ، وأحل له وحرم عليه ، بدون أن يرسل اليه رسولا ، وهذا هو كل معانى النبوة ، فمن هذه الناحية نقول انه نبى ونطمئن أنفســـنا بذلك ·

وأما رسالته فالأمر فيها مختلف فيه ، وشأننا أن نفوض علم ذلك الى الله تعالى ·· على أنى رأيت فى حديث أبى هريرة فى الشفاعة الوارد فى صحيح مسلم أن الناس يذهبون الى نوح ويقولون له : أنت أول رسل الله الى الأرض ، فلو كان آدم رسولا لما ساغ هذا القول ، والعلماء القائلون برسالة آدم يؤولون ذلك بأنه أول رسول بعـــد الطوفان ، وهو تأويل متكلف »

هذا أجمل وأمثل ما يمكن أن يقال فى هذا الموضوع مع الاجمـــال والاستغناء عن الاسترسال ·

ولو طبقنا معنى الرسول على آدم لوجدناه غير منطبق عليه الا بتكلف لا يبرره نقل ، ولا يسيغه عقل ، فانبـــاء آدم بأسماء الأشـياء ليس من رسالات الأنبياء الى الناس ، بل الملائكة ، وقد علمنا أن الملائكة مجبولون على طاعة الله فلا حاجة بهم الى رسول ·

أما ارشاد أبنائه الى ما شرع الله لهم فعمل تقضى به الفطرة وتدفع اليه عاطفة الأبوة دون تكليف من الله · ان كان أبناؤه قد تلقوا عنه شرعا من الله ··

المعصية والنبوة ···

اذا كان آدم نبيا ـ كما تقدم ـ فكيف عصى ربه · والأنبياء معصومون من الوقوع فى المعصية ··· ؟

قيل فى الجواب عن ذلك أن أكله من الشجرة التى نهاه الله عن الأكل

منها وقع منه نسيانا لا عمدا ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : « ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما » ٠

لكن يبقى بعد ذلك سؤال آخر ، وهو أن الله سبحانه سمى ما وقع فيه معصية وعواية ، فقال « وعصى آدم ربه فغوى » وقد أجيب عن ذلك بأن النبى ليس كغيره من الناس ، فيجب عليه الحذر والانتباه ، فاذا نسى عد ذلك خطيئة بالنسبة اليه وان لم يكن خطيئة بالنسبة لغيره ، وحسنات الأبرار ــ كما يقال ــ سيئات المقربين ٠٠

وقيل كذلك انه فهم من أمر الله ونهيه أنهما للارشاد والنصح ، فلا يترتب على مخالفتهما معصية ، كالأمر بكتابة الدين فى قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه » فليس الأمر به للوجوب وانما هو للارشاد ٠

وقيل انه تأول فى أكله من الشجرة ، وفسر ذلك بأن الله نهاه عن الأكل منها ٠ فأكل من شجرة أخرى مثلها ، على ظن أن الله نهاه عن هذه الشجرة بالذات ٠ ولم ينهه عن الأكل من شجرة أخرى من جنس هذه الشجرة ٠

وقيل ، وقيل ٠ ولا داعى لعرض ما قيل ، فقد كان ما شاء الله أن يكون ٠ ولا يقع فى ملكه الا ما يريد ٠

سبحان من لا يخطىء ٠٠

والذى أفهمه فى خطأ آدم أنه طبيعى فيه من حيث هو انسان يخطىء ويصيب ، لا من حيث هو نبى معصوم من الخطأ ٠٠

وقد أخطأ نوح عليه السلام ٠ ففهم وعد الله بنجاته ونجاة أهله من الغرق على غير حقيقته وقال : « رب ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق » فرده الله الى الصواب بقوله : « انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح »

وقد أخطأ ابراهيم عليه السلام ٠ فاستغفر لأبيه ــ وكان كافراً ــ وقال له يعده بالاستغفار « لأستغفرن لك » « وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه » ٠

وأخطأ موسى حين « استغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه » ثم قال « هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين » ٠

وأخطأ خاتم الأنبياء والمرسلين عليه وعليهم السلام حين استغفر لرجل من المشركين فقال له الله فى ذلك « ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى » ٠

واذا صح ما نسبه انجيل يوحنا الى المسيح من أنه قال لأمه فى

عرس قانا « مالى ومالك يا امرأة » وما نسبه اليه انجيل متى من أنه رفض لقاء امرأة كنعانية لجأت اليه وقال « لم أرسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة » كان ذلك كذلك من أخطاء الأنبياء ·

كل الأنبياء اذن يخطئون من حيث انهم بشر ، ولا يخطئون فيما يبلغونه عن الله ، لكن خطأهم نتيجة اجتهاد منهم · أما خطأ آدم فكان نتيجة نسيان لأمر حذره الله مخالفته ·

لهذا · ولأنه مبدأ سلسلة الأخطاء التى ارتكبها بنوه سمى خطؤه معصية ·

واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس
أبى واستكبر وكان من الكافرين (٣٤) وقلنا يا آدم
اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منهـا رغدا حيث شئتما
ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين (٣٥) فأزلهما
الشيطان عنهـــا فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا
بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى
حين (٣٦) فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو
التواب الرحيم (٣٧) قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم
منى هـــدى فمن تبع هـــداى فلا خوف عليهم ولا هم
يحزنون (٣٨) والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئـــك
أصحاب النار هم فيها خالدون (٣٩) .

الايمان لا يتجزأ ..

« واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . »

ذكرنا فيما سبق معنى السجود لآدم . وسبب امتناع ابليس عنه ، وقلنا ان ابليس لم ينكر أنه خالقه بدليل قوله « خلقتني من نار وخلقته من طين » فلماذا صار من الكافرين كما تصرح هذه الآية .. ؟

الجواب عن ذلك أنه استقبح أمر الله بالسجود لآدم ، فقد كان يعتقد أنه أفضل منه ، ولا يؤمر الأفضل بالخضوع لمن هو أقل منه ، وهذا القدر كاف في الحاقه بالكافرين فان من يتعمد مخالفة أمر الله استكبارا عنه ، أو استهتارا به ، أو استقباحا له ، لا يكون مؤمنا ..

وقد نص القـــرآن على كفر الذين « يقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض » . فقال « أولئـــك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا »

فالايمان بالله لا يصح مع تعمد المخـــالفة لأمره . والتمرد عليه . وانكار شريعته أو بعض شريعته . ورسله أو بعض رسله .

وشتان بين من يعصى الله وهو يعلم صواب أمره ، ومن يعصيه وهو ينكر صحته وحكمته .

فالأول كمن يعصى الطبيب فيتناول طعاما حـــرمه عليه وهو يعلم صحة رأى الطبيب ويثق بنصحه ، والثاني كمن يعصيه فيتناول الطعام الذى حرمه عليه ، مستخفا برأيه ، مستجهلا له ، هازئا به ..

لا عذر .. الا الكبر

قد يقول قائل ـ كما قيل ـ لماذا يؤاخذ الله ابليس على عدم السجود لآدم مع أنه لم يأمره به . وانما أمر الملائكة ، وهو ليس منهم كما يستفاد من قوله تعالى : « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس» ..؟

وقد أجيب عن ذلك بأن ابليس لو كان غير مأمور بالســجود لقال لربه : لم تأمرني به ، وانما أمرت الملائكة ، ولكنه حين قال له الله « ما منعك أن تسجد لمـا خلقت بيدى » قال : « لم أكن أســـجد لبشر .. » فأظهر التكبر ، ولم ينف أنه كان مأمورا مع الملائكة ..

لقد كان الامر بالسجود لكل من شهد نفخ الروح فى آدم ، وانما ذكر الملائكة دون غيرهم • لانهم كانوا الكثرة • والجمهرة العظمى ، فوجود فرد أو أفراد • أو عدد قليل من غيرهم كالجن لا يقتضى تعدد الخطاب أو الأمر ، بل يكفى توجيه الأمر الى الغالبية أو السواد الأعظم من الحاضرين ليشمل غيرهم تبعا لهم ••

ويرى بعض العلمـــاء أن ابليس كان من الملائكة ، وأن منهم صنفا يسمى الجن ، وعلى هذا الأساس يكون الأمر للملائكة أمرا لابليس لأنه من صنف منهم •

وعلى أى حال فقد اعترف ابليس بالعصيان ، وجاهر به ، ولم يعتذر بأنه فهم أنه غير مأمور بالسجود ، ولا بأى عذر الا الكبر الذى أدى به الى الكفر •

ايضاح • وابهام

« وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » •

يقال عيشة ـ رغد ـ بسكون الغين وفتحها ـ أى واسعة ليست ضنكا، طيبة تطيب بها نفس صاحبها ، ويقال فلان فى رغد من العيش • أى فى سعة ورفاهية ، وكلمة « رغد » هنا وصف للأكل المفهوم من جملة « وكلا » بمعنى أنه موفور كثير ، تطيب به النفس ••

وكلمة « حيث » معناها المكان المبهم ، تقول أنا معك حيث شئت بمعنى فى أى مكان تريد •

والظلم له معان كثيرة يجمعها معنى وضع الشىء فى غير موضعه ، ومن معانيه الجور • والاعتداء على حق الغير • ومن معانيه كذلك النقص كما يفهم من قوله تعالى : « كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا ، أى لم تنقص •

وعلى هـــذا يصح أن يكون معنى « الظالمين » فى قوله « فتكونا من الظالمين » الذين يسيئون الى أنفسهم بمعصية الله ، أو الذين ينقصونها حظها • أو يسلبونها حقها بفعل ما يخل بالكرامة ، ويؤدى الى الحرمان •

أما الجنة فقد سبق أن أشرنا الى اختلاف العلماء فيها ، أهى جنة المأوى التى وعد الله بها المتقين فى الآخرة ، أم جنة من جنات هذه الأرض ، أم جنة أخرى خلقها الله لآدم كى يمتحنه بها •• ؟

ونضيف الآن ما ذهب اليه بعض الباحثين من أنها كانت فى قارة أخرى غير هذه القارات • غرقت بما عليها من حيوان وزرع وشجر وسهول وجبال ، وغرق معها ستون مليونا من الناس فى أعماق المحيط الهندى •

فهرس

الموضوع	الصفحة
اهداء	٣
مقدمة	٥
فاتحة الكتاب	١١
سورة البقرة	٢١
الكفر والكافرون	٣٩
النفاق والمنافقون	٤٧
قصة هؤلاء	٥٥
عود على بدء	٦١
هذه الأمثال	٨١
قصة كل قصة	٩٣
قصة آدم	١٠٥
الايمان لايتجز	١٢٧

مطابع الدار القومية

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢

٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤